أمينة جباري

رسائل السيدة الأولى

روايـــــــة

أمينة جباري

رسائل السيدة الأولى

ردمك : 978-9931-288-94-7

الايداع القانوني: سبتمبر 2023

الطبعة الأولى.

الناشر :فهرنهايت 451 للنشر والتوزيع

إيميل: edition.fahrenheit451@gmail.com

العنوان :وسط مدينة الجلفة.

جميع الحقوق محفوظة©

لا يسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقيا أو إلكترونيا أو أية وسائط أخرى، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال،بدون اذن خطي من الناشر أو المؤلف .تستثنى منه الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

فهرنهايت 451
للنشر والترجمة

شكر وعرفان

أقدم خالص شكري وامتناني إلى كل من:

أبي الصديق والمعين ورفيق الأيام.

أمي الثانية، السيدة حدة بن سماعين.

أختي وابنة قلبي مونية.

أخي يوسف جباري وزوجته وطفلهم، أميري الصغير.

إخوتي وسندي جباري شعيب وجباري خالد وزوجاتهم.

أخواتي الأعز على قلبي جباري وريدة وجباري فاطمة الزهراء وأزواجهم.

رفيقات روحي أية، داليا، أميمة ، إنصاف، هزار و ياسمين.

وشكر جزيل من القلب، إلى كل من يحمل لي ذرة حب، أحبكم جميعا.

إلى التي علمتني الحياة، إلى تلك المحاربة القوية التي قاومت بشدة من أجل البقاء، وإلى السيدة الأولى في حياتي. هذه الرواية مهداة لكي يا أمي.

الليلة الأولى في المستشفى

استيقظت يوم دخول أمي إلى المستشفى قيل رنة المنبه، بعد أن قضيت ليلة مشحونة بالترقب والخوف، وبخليط مريب آخر من المشاعر، وشملت الليلة معها أيضا بصيصا من الأمل الصغير الذي نتمسك به جميعا كبشر، وأمل كبير بعودة ماما معنا إلى المنزل بعد كل هذه الرحلة القاسية والمخيفة و التي أكثر ما آلمني فيها، إخفائنا عنها الكثير من الأشياء بداية من حقيقة مرضها والتي اكتشفتها بمفردها لاحقا، هي التي كنت أخفي وإياها الحقائق عن الآخرين، صرت الآن أخفي عنها، و قد كان الأمر مخيفا لدرجة رهيبة، و شعرت كأن أمي قد ابتعدت عني آلاف الأميال وأنا أحادث أحد أفراد عائلتنا ليلا عبر الهاتف بصوت منخفض كي لا تتسلل كلماتي مني وتسمع هي ما أقوله.

دخلنا رواق المستشفى وشعور الريبة يعتريني، لطالما رغبت في اصطحابها إلى مطعم فاخر أو إلى أي مكان مسل بعد أن أقبض راتبي الأول.

لم أتصور أبدا أنني سأرافقها إلى مصلحة جراحة الأعصاب بنفسي قبل أن أحضى حتى بمنصب عمل. تخيلتها في أحلامي مرارا ترقص في زفافي فرحة وتوزع الحلوى في حفل تخرجي، لكن أن نكون معا هنا في هذا التوقيت، وأكون أنا آخر العنقود، شاهدة على هذا الابتلاء العظيم منذ لحظاته الأولى، فهذا برمته لم يكن ضمن نطاق توقعاتي.

كانت أمي ترقد على سرير يطل و ساحة المستشفى الكبيرة، بنافذة زجاجية طويلة يصطف عندها الحمام طلبا للأكل، بينما حملت الغرفة التي مكثنا

بها الرقم خمسة وقد لمحت تلك اللافتة فور دخولنا، ولطالما راوغتني ذاكرتي في حفظ مالا حاجة لي به.

تكونت الغرفة من ثلاثة أسرة منفصلة اصطفت بشكل أفقي، وتيقنت بعد هنيهة أنني سأفترش الأرض لا محالة، إلى أن ظهر لي كرسي بلاستيكي مكسور اليد يقبع في آخر الرواق، هرولت لأخذه والاستيلاء عليه، لا بأس به هو الأخر في خضم كل ما يجري من حولي منذ حوالي الشهر تقريبا، بين اكتشافنا للمرض الذي قلب حياتنا رأسا على عقب، و بين قرار أمي القطعي بإجرائها لعملية معقدة لإزالة ورم كبير في الدماغ وصولا إلى دخولنا للمستشفى.

مرت الساعات الأولى في المستشفى طويلة، بقيت خلالها أطالع وجوه المرضى من على كرسيي الأبيض، شعرت بعدم حاجتي للاحتكاك بهم أو حتى بأوليائهم نظرا لانتشار فيروس كورونا آن ذاك، و ربما خوفا مني لمعرفة أمراضهم أو قصصهم والتعلق بها، فكرت أنه لربما أجد لديهم أمراض أكبر من تلك التي تعاني منها أمي فأشعر بالسخافة حول كل ما أقلق من أجله، لكن رغم ذلك فإنني لا أظن أن هناك ما هو أعظم من أمي.

على يسارنا لمحت فتاة تغط في نوم عميق، يظهر جليا بأنها في العشرينيات من عمرها، وإلى جانبها تجلس امرأة أنهكها التعب، خمنت بأنها والدتها بعد أن لاحظت وجود شبه كبير بينهما، وعلى الجانب الآخر كانت هناك امرأة أربعينية تستلقي في صمت وتحدق في أمي منذ دخولنا إلى الغرفة.

شعرت لثواني قليلة بأن الأمور هنا تبدو عادية للجميع، أو على الأقل هم يحاولون جعلها كذلك. يعج الرواق بالمطلين من النافذة الكبيرة على ملعب براقي النصف مكتمل، ويقف آخرون عند أماكن تسخين الطعام وهم يتبادلون أطراف الحديث. بدا لي الأمر غريبا جدا، أغلبية المرضى تعلو الابتسامة وجوههم في تفاؤل

مريب، خصوصا وأنني أجزم أن أغلبيتهم يعانون من أجسام أو تشوهات غريبة في أدمغتهم جاءت بهم وبي إلى هذا المكان.

الرواق' أ' كان مخصصا للنساء بعشر غرف، والرواق' ب' كان للرجال بنفس العدد، بينما خصص رواق ثالث على الجانب الآخر للأطفال. أطفال جميلون جدا أغلبهم مصاب بأورام في الدماغ، يتابعون تطوراتها وبعضهم مقبل على عمليات من أجل استئصالها.

الواحدة صباحا في أول ليالي المستشفى، لم يراودني ليلتها أي نعاس بعد أن وجدت نفسي جالسة على ذلك الكرسي الصلب والبارد في واحدة أبرد ليالي فيفري. قمت للتمشي قليلا بعدما اطمأن قلبي على حالة أمي، تصادفت مع سيدة تحمل طفلا و تحاول تهدئته عله ينام قليلا. لقد كان جميلا لدرجة تجعلك تخجل من سؤالها عن مرضه، أو عن سبب قدومه إلى هذا المكان، بينما وجدت وقتها مداعبته أمرا أسهل بعيدا عن أي إحراج.

طفل مشاغب بملامح شقراء حرم على والدته النوم هي ومن معها في الغرفة، فما كان بيدها سوى أن حملته خارج المكان حتى لا تزعج المرضى النائمين.

-يا لك من مشاغب.

قلت ممازحة.

-نعم مشاغب جدا لدرجة رمي نفسه من شرفة المنزل.

قالت والدته جملتها تلك ودخلت في نوبة بكاء حادة وهي تنظر إليه في شفقة ثم قالت مسترسلة:

-لم يغب يوما عن ناظري، كل ما في الأمر أنني انشغلت يومها قليلا مع شقيقه الأكبر، كان يحكي لي كيف أبدى في امتحان اللغة الفرنسية، لأتفاجأ بصراخ الناس أسفل العمارة، ما إن نظرت من شرفة المنزل حتى رأيته مستلقيا على الرصيف وحالته مبكية. لم أقوى حتى على النزول إليه من صدمتي.

قلت محاولة مواساتها:

-لا تبكي يا أختي، قدر الله ما شاء فعل، كما أن هذا المشاغب يبدو بخير ولا شيء يدعوا للخوف والقلق أليس كذلك ؟

- لحسن الحظ أننا نقطن بالطابق الأول وسقوطه لم يكن قويا، يشكون بوجود كرية دم متجمدة في دماغه، لهذا يتم إبقائه هنا تحت المراقبة.

- أسأل ربي من فضله أن يشفيه ويعافيه إن شاء الله، "ربي معاك".

وهكذا هي دعوات الجزائريين في المرض.

عدت أدراجي وأنا أشعر بضيق من القصة التي سمعتها لتوي، حاولت النوم على الكرسي لكنني لم أنجح في ذلك، ولم يتبقى لي سوى الاستلقاء عند طرف السرير بجانب أمي ، ورحت بعدها في نوم عميق لم أستيقظ منه إلا على صوت المرأة التي تبقى مع ابنتها معنا في نفس الغرفة، كانت الساعة تشير إلى حوالي الرابعة صباحا، سمعتها تقول:

- ابنتي، "ربي يسجيك" هلا ساعدتني ؟

قالت "يسجيك" يعني أنها تمنت لي النجاح في حياتي والتوفيق، لا يمكن رد طلب كهذا، خصوصا إذا أُرفق بدعوة ثقيلة كتلك، قمت في إعياء وعيني اليسرى شبه مغلقة من شدة النعاس، ساعدتها في تغيير فراش ابنتها التي لم تتعدى بعد

الثلاثين عمرها، أصيبت بجلطة دماغية ونزيف أودى بيدها اليمنى و بقدرتها على الكلام في ليلة واحدة، لم أقوى حتى على مواساتها بعد سماعي لقصتها، كل ما كان بيدي هو هذه الكلمات العقيمة:

-فليكن الله في عونك.

نظرت أمامي فإذا بتلك المرأة التي كانت تحدق بي بغرابة في الأمس تبكي في صمت، سمعتها تقول لأمي بأنها تقبع منذ حوالي العشرين يوما ولم يتم تحديد أي موعد لعمليتها بعد، شوقها لأولادها كان كبيرا، ولم تتوقف عن محادثتهم عبر الهاتف منذ أن وطأت قدمنا تلك الغرفة. كانت دموعها سخية وبلا صوت، جلست بجانبها وبكينا سويا.

ميس لاتيشا رفيقة مأساتي

على طريق العودة، أجلس في حافلة نقل الطلبة مساءا وأنا أقرأ رواية "شيفرة بلال" في اهتمام بالغ، يوم علمت والدته الميس لاتيشا عن حقيقة مرضه وعن الأشهر القليلة المتبقية من حياته، لتجد نفسها مجبرة على اتخاذ قرارات كبيرة، أكبر من عمر بلال نفسه، لتدخل بعدها في نوبة بكاء محزنة أعلنت فيها استسلامها، أبكتني معها فأعلناه سويا، أنا التي لا تبكيني الكتب.

في اليوم الموالي رافقت أمي في موعدها إلى الطبيبة لتعلن لنا عن أسوء خبر قد يسمعه المرء في حياته، شعرت للحظة أنني قد عشت نفس المشهد بالأمس لكن مع بلال ووالدته، نفس الحركات وحتى المصطلحات الطبية التي تزيد من حيرة الإنسان ولا تطمئنه، بتفاصيل دقيقة كتبها أحمد خيري العمري من بغداد لتصل عندي إلى الجزائر في توقيت غريب جعلني أشعر أنني بحاجة ماسة لمحادثة شخصيات الرواية، وقررت يومها مثلما قرر بلال الشجاع عندما علم هو الآخر بحقيقة مرضه، لقد قررنا سويا، أن نترك أثرا، للرحلة.

From: Aminadjebbari1999@hotmail.com

To: Bilal2001ny@hotmail.com

Subject:تعازي وتعارف

ميس لاتيشا، تحية طيبة أما بعد.

أولا وقبل كل شيء أود أن أعزيك في فقدانك بلال، لقد كان فتى رائعا، تعلمت منه الكثير وألهمت مدونته آلاف الناس عبر العالم ويجب أن تكوني فخورة به الآن أينما كان.

ثانيا أود أن أعرفك بنفسي: أنا أمينة جباري، كاتبة من الجزائر، تعرفت عليك من خلال كتاب الرائع الأستاذ أحمد خيري العمري شيفرة بلال الذي حكا فيه عن قصة الصحابي الجليل بلال بن رباح رابطا إياها و قصة بلالك، تماما مثلما ربطتها أنا بقصة أمي.

أراسلك من خلال إيميل ابنك بلال بما أنه الآن بحوزتك، وبما أنني أساسا لا أعرف الإيميل الخاص بك يا ميس لاتيشا.

يجمعنا أمر واحد، سرطان الدماغ. لقد اكتشفنا مرض أمي منذ فترة قصيرة جدا لم تتعدى بعد العشرين يوما، ورم دبقي بستة سنتمترات في الجهة اليسرى من الدماغ، بحثت عن هذا المرض مطولا على الأنترنت ووجدت مئات المقالات عنه، يقال أنه نوع شرس من الأورام. بلالك كان ورمه دبقيا أيضا وهذا ما دفعني لمراسلتك طلبا لبعض الأجوبة.

أراسلك اليوم للمرة الأولى وتأكدي أنها ليست الأخيرة رغم شكي بوصول الرسائل إليك لأسألك صراحة: بلال كان مصابا بورم دبقي جسري منتشر(DIPG) .

بحيث يُلجأ في هذه حالات كهذه إلى العلاج الإشعاعي والكيميائي بدل اللجوء إلى الجراحة.

السؤال الآن: في حال كان من الممكن أن يتم اللجوء إلى الجراحة من أجل استئصال الورم، هل كنت فعلا ستتخذين القرار بإجراء العملية رغم كل المخاطر التي تحيط بعملية ثقيلة مثلها ؟

عن نفسي أملك الجواب.

نعم سأفعل. الورم الموجود داخل دماغ أمي قاتل. الجراح أخبرنا بأن بقائه هناك سيقتلها خلال أشهر، وبأن العملية أيضا خطيرة جدا ونسب فشلها عالية جدا مقارنة بنسب نجاحها.

فإذا كان بقائه هناك قاتل لا محالة، فالعملية تحمل في طياتها بصيص أمل رغم كل الخطورة التي تحفها، لا يمكننا أن نحكم على أحبائنا بالموت المحتم كسبا لبعض الوقت معهم إلى جانبنا لا غير، سنكون أنانيين جدا إن فعلنا ذلك، وهذا كان رأي أمي هي الأخرى.

أنت يا ميس لاتيشا تشبهين أمي كثيرا، في قوة شخصيتها وجدية قراراتها لذلك أكاد أجزم أنك كنت ستتخذين نفس قرارها بالدخول إلى غرفة العمليات.

أتمنى يا ميس لاتيشا أن يصلني جوابك سريعا فكلي شوق لمعرفته.

تحياتي.

كان يا مكان
كان يا مكان
الحب مالي بيتنا ومدفينا الحنان...

يصدح بيتنا بصوت ميادة الحناوي في كل مرة تلتقي أمي بأغانيها صدفة على التلفاز، تردد خلفها وتدندن معها في شجن. "أنا بعشقك أنا" و"كان يا مكان"، تستحضر بهم أمي شبابها وتخبرنا كم تعني لها هذه الأغاني والألحان، والكلمات.

يحضرني مشهد مر عليه وقت طويل، قبل حوالي الست سنوات، ببيتنا القديم، أرى أمي واقفة في المطبخ وهي تهم في تحضير الغداء وأغاني ميادة تنطلق من تلفزيون غرفتها. لقد كان شكلها مختلفا تماما على ماهي عليه اليوم. أمي، بكليوغرامات أكثر ووجه مشع بالحيوية والنشاط، أرى امرأة تحب الحياة حتى صارت الأخرى تحبها أيضا. مشاوير مع صديقاتها وجلسات نسائية لا تنتهي كلها أصبحت الآن من الماضي.

قبل حوالي الثلاث سنوات، بدأت أمي تشعر بأن يدها اليمنى تضعف تدريجيا بحيث قلت معها نشاطاتها في المنزل و خرجاتها إلى العالم، حتى اختفت نهائيا بعد أن توقفت يدها عن العمل بشكل تام. تعب دائم وتغير في المزاج و المرأة التي كانت تحب الحياة لم تعد كذلك اليوم، الأمر تغير. حتى الكلام صار يبدو لها متعبا وقد لاحظ الجميع ذلك. حورية التي كانت تُضحك الجميع في لقاءاتهم العائلية لم تعد تقوى حتى على الابتسام.

-اسمي عزيزة، وعندي ورم في الدماغ.

قالت جملتها الغريبة تلك وهي تهم بالجلوس أمامي أنا وأمي في ثاني أيامنا بالمستشفى.

طريقة تقديمها لنفسها ذكرتني بمشهد في مسلسل حلاوة الدنيا، أين تعرفت أمينة على سليم في مجموعة مختصة للدعم النفسي لمرضى السرطان حيث تعارفا بشكل غريب يثير السخرية:

-أمينة، لوكيميا (سرطان في الدم).

-سليم ورم في الدماغ.

وتصافحا وكأنهما قد تعارفا منذ لحظات بشكل طبيعي لا غبار عليه، مثلهم مثل كل الناس الطبيعية التي تعيش على هذا الكوكب، لم أتخيل يوما أنني قد أعيش مشهدا ممثلا أمام عينيَ، ظننت لسنوات طويلة بأن السرطان بعيد جدا عني وعن عائلتي، قد أسمع عنه في القصص أو الأفلام أو حتى أقرأ عنه في الكتب لكنه سيظل بعيدا عني وعن واقعي، لكن الحقيقة المرعبة أنه كان أقرب مني بكثير وربما أقرب مما كنت أتخيل.

كانت عزيزة فتاة لطيفة جدا، تبدو في الثلاثين من عمرها وتضحك عيناها كلما تحدثت أكثر.

-أنا من الجلفة.

-ولاد نايل إذن ؟.

-نعم وبكل فخر.

-حتى لو لم تطلعيني عن أصولك، فهي واضحة وضوح الشمس وقد ميزتها منذ أول لحظة رأيتك فيها، العيون بكبر الفنجان والشعر الأسود خير دليل على أنك نايلية، الملامح الحادة والناعمة في آن واحد.

- ربي يحفظك، سنلتقي إذن حال خروجنا من هنا في بيتي وسنحتسي "قهيوة" في بلادنا الزينة.

قالتها عزيزة بلهجة نايلية جميلة لتجيبها أمي بعفوية:

- إن شاء الله، سنأتي ونراك تحملين طفلا بين يديك بإذن الله.

- والله أنك قد دخلتي قلبي يا خالة، دعواتك بأن يرزقني الله بالذرية الصالحة.

نظرت لها أمي بحنان وأغدقتها بكم هائل من الدعوات الجميلة انتهت بحضن دافئ شعرت بالغيرة وأنا أنظر إليه، راحت بعده عزيزة تروي لنا قصة اكتشافها لمرضها في رضى عجيب:

- كنت بصدد معالجة مشاكلي بالإنجاب حتى وجدت نفسي هنا.

قالتها ضاحكة وأكملت:

- كنت أشعر بألم رهيب في أسناني وضروسي حتى اقتلعت نصفها ولم ألمس أي نوع من الشفاء أو أي توقف للألم، نصحوني بزيارة طبيب للأعصاب الذي اكتشف بدوره وجود ورم في دماغي. يقولون أنه كبير، إنه كالقبعة فوق راسي.

وانفجرت ضاحكة حتى ضحكنا معها، كن نضحك آلامنا جميعا. ودعتنا واتجهت نحو الغرفة المجاورة لتسأل عن أهلها. المسكينة وبسبب طول مدة مكوثها هنا في المستشفى، والتي فاقت العشرين يوما تعرفت خلالها على الجميع، مرضى، أطباء وعمال المصلحة ووصل الأمر حد الممرضين.

جمع هذا المستشفى الناس من كل مكان بشكل غريب، لقاءات وتبادل للهموم امتزج مع التجارب البشرية القاسية، جعلت من الأطباء والعمال يبدون أكبر سنا مما هم عليه، عن نفسي بقيت هنا ليومين فقط كبرت فيهم عشر سنوات من هول القصص التي سمعتها.

في المساء شعرت بضيق مفاجئ أصبح عادتي منذ وطأت قدمي هذا المكان، وحده سكون الليل من يكشف ضعفنا وتظاهرنا الشديد بالتماسك، كنت أتجول بين أروقة المستشفى في انتظار أن تحضر لنا أختي وجبة العشاء رفقة أبي، مررت سريعا بجانب غرفة عزيزة، لوحت لها بيدي فردت عليها بابتسامة دافئة. بجانبها لمحت سريرا فارغا يبدو أن صاحبته تتسكع مثلي، وفي الجانب الأخر رأيت سيدة عجوزا تحمل ملامح جدتي، تجلس في كرسي يشبه ذاك الذي قدم إلي يوم دخلت هنا، أو بالأحرى ذاك الذي استوليت عليه، تحمل بين يديها كتاب قرآن وتردد آياته في هدوء عظيم ملأت بروحانيته الغرفة وبل المستشفى كاملة، قادتني قدماي نحوها حتى وجدت نفسي أسلم عليها قائلة:

-مساء الخير الحاجة كيف حالك؟

أجابت بلطف بالغ وحنان يشبه إلى حد ما حنان الجدات:

- نحمد الله على كل حال، كيف حال ابنتي؟

كانت تقصدني بكلامها:

- الحمد لله.

هممت بمغادرة الغرفة هربا قبل أن يباغتني طوفان المشاعر الغريب ذاك في كل مرة أحادث فيها مريضا، شعرت أنني أضاعف على نفسي الألم بفتح علاقات إنسانية معهم، سأشعر بالسوء إن حصل لأحد منهم شيء ما لا قدر الله، لكنني في

قرارة نفسي، كنت أعلم أنني في محاولة حقيقية لمضاعفة الأمل الموجود لدي والذي أشعر أنه يتسلل مني، بالتدريج.

- ما خطبك يا سعاد ؟ ما كل هذا الصراخ ؟

قالتها عزيزة لتلك المرأة التي كانت تركض في هيستيريا وتتكلم بصوت أقرب ما يكون إلى الصراخ:

-الحمد لله الحمد لله، لقد تقررت عمليتي ليوم الخميس... أخيرا سأعود لأطفالي.

لم أرى في حياتي شخصا يسعد لقدوم موعد عملية مفصلية قد تقضي على حياته بهذه الطريقة. كانت تصرخ فرحة وهي تردد:

-لا يزال أطفالي بحاجتي، سأعود إليهم، سأعود.

فهمت من كلماتها أن مكوثها هي الأخرى هنا قد طال، تساءلت إن كانت أمي ستلقى نفس المصير، هل ستنتظر شهرا أخر هنا أو شهرين ؟ رحت أتساءل.

منذ اليوم الذي اكتشفنا فيه مرضها، وأنا أخشى شيئا واحدا، أن يصيبها أمر ما قبل أن نلحق بموعد عمليتها، أتفحص أنفاسها إن كان منتظمة عديد المرات قبل نومي، خفت بشدة من أن يسبقنا تطور ذلك الورم، و لأول مرة وجدت نفسي في مواجهة الحقيقة التي يهرب منها الجميع، صرت أخشى رحيلها بلا رجعة.

فجر اليوم الثالث منذ دخولنا لمصلحة جراحة الأعصاب، لقد كانت ليلة هادئة لم تشهد أي استعجالات أو حتى مناوشات ليلية قد تفسد صفوها مما جعلها ليلة استثنائية نمنا فيها بسلام. الساعة تشير إلى السادسة والنصف، قصدت الحمام حتى أغسل وجهي فإذا بالشمس قد طلعت ولونها الأحمر الحارق يضرب

الحائط المؤدي لغرفتنا في مشهد بهيج، لم أرى الشمس هكذا منذ مدة طويلة. ربما منذ أيام المخيم الصيفي الذي كنا نرتاده كل سنة قبل مرض أمي.

-حمرة الشمس اليوم رائعة يا أمي، لم أشاهد شروقا مبهجا كهذا منذ سنوات.

قلتها وأنا أهم بدخول الغرفة.

-أترين يا جميلة ؟ أهدر واسمع الفأل. .

قالتها أمي للخالة جميلة التي كانت تنظر إلى ابنتها بعد كل الأسى الذي أصابها. يبدو أن أمي قد أخبرتها بنبؤة جميلة حول مستقبل طفلتها أو قد واستها بطريقة ما، وما إن قلت جملتي حتى أخبرتها أن هذا فأل جميل، هي عادة جزائرية يقولون فيها "أهدر وأسمع الفال" بمعنى أن تقول شيء ويجيب شخص أخر أو تسمع تأكيدا على ما قلته دليلا على بشرى قريبة. الجميع هنا ينتظر بصيص أمل حتى لو كان ضعيفا، كلمات بسيطة أو حمرة شمس قد تفعل ذلك، مثل الفال الذي سمعته جميلة ذلك اليوم، وقد أسعدها جدا.

في انتظار دورية الأطباء الصباحية يمر الوقت بطيئا، بين تحضيرات القائمين على المصلحة وتأكيدهم لنا على استعمال الأفرشة الخاصة بالمستشفى حتى تنتهي زيارتهم، ومن ثم نزعها إن كنا لا نريد استعمالها، المهم في كل الموضوع، أن يتم رؤيتها على الأسرة، بغض النظر عن استعمالها من عدمه.

-لقد تم برمجة موعد عمليتك سيدتي، عمليتك يوم الأربعاء.

على حين غرة قالت مساعدة الجراح جملتها تلك لأمي، تجمد الدم في عروقي فجأة وتوقف سريان الهواء في الجو للحظات، وقد صعقت لما سمعته للتو.

لم أكن مستعدة لخبر كهذا، لكن أمي أظهرت عكس ذلك، وقد بدت على أهبة الاستعداد عند تلقينا الخبر، إذن أربعة أيام تفصلنا عن يوم الحسم.

الجميع يسعد هنا عندما تتقرر عملية أحد، وكأنه سيتخلص من عبئ لطالما أرق حياته وطريقة سيرها. الجميع بارك لأمي وتمنى لها النجاة والعودة سالمة غانمة من حربها هذه في مشهد مهيب تقشعر له الأبدان لو صور كمشهد سنيمائي، لكنه كان حقيقيا بلا مؤثرات خارجية أو موسيقى حزينة تضاف في الخلفية، كان حقيقيا لدرجة البكاء.

نظرت يمينة، ثالث نزيلات الغرفة في حزن وقالت:

-العقبة لي.

وانفجرت باكية.

في كل مرة كانت يمينة تبكي فيها، سواء اشتياقا لأطفالها الثلاثة أو على أي شيء أخر كانت أمي تبكي معها بحرقة، أصبحت حساسة جدا، تبكي على كل شيء وأولها على "الصحة الغدارة" في كل مرة يأتي فيها ذكرها.

لا ضمانات مع الصحة، الأمر مخيف لدرجة كبيرة، نسير ولا ندري ما الذي يجري داخل أجسامنا وبإمكان لحظة حقيقة واحدة، مرفقة بنتيجة تحاليل ونبرة طبيب حادة أن تغير كل شيء.

بكاء يمينة أثر في الجميع، على أمي و على الخالة جميلة وحتى على ابنتها إيمان التي ترقد في صمت، حتى أنا قد تأثرت لبكائها جدا.

يمينة أو الخالة يمينة كما تناديها أختي، لم أشعر بفارق سن كبير بيننا فأبقيت على اسمهما كما هو بدون إضافات، ربما لأنني شعرت أنها أختي الكبرى،

تجلس على حافة السرير بجانب أمي تحادثها، وقد بدى على أمي أيضا أنها أحبتها. يتبادلان الأحاديث عن الأمومة وتربية الأطفال وعن الطبخ وعن كل شيء، يأتي وقت الزيارات بعد الظهيرة ويهتم بعدها كل مريض بضيوفه، لنعود بعد العصر وحيدين مجددا، نلملم شملنا نحن الخمسة في غرفة جمعتنا بلا موعد، نحكي قصصنا بشغف عال، علنا نقضي ولو على قليل من الوقت، أو كثير منه.

تأقلمت تدريجيا مع وضعي في المستشفى، وقد بدأت أشعر بالحب ناحية الجميع في هذا المكان، وصرت دون دراية مني أقلق حول مصيرهم تماما مثلما أقلق على مصير أمي.

شعرت أن اهتمامي بهم سيكون هاجسا يؤرق نومي في أيامي القادمة، كيف سيكون شعوري إن اختفى أحدهم فجأة ؟ اللعبة هنا أشبه بلعبة الموت، لا ضمان فيها لحياة أحد، وبإمكان خطأ صغير أو حركة مشرط عشوائية أن تضع حدا لها.

زارتنا صباح الغد طبيبة نفسية لطيفة، تبادر إلى ذهني بأن عملها في الغرفة رقم خمسة سيطول، فإيمان النائمة قد استيقظت وصار باستطاعتها الجلوس بعد أن دبت فيها الحياة مرة أخرى، ويمينة هي الأخرى بحاجة لبعض الدعم والتشجيع حتى يحين موعد عمليتها، أما أمي فكانت في نظرها بحاجة إلى جرعة أمل و رشة من تابل الشجاعة لتتمكن من الدخول إلى غرفة العمليات بقلب حديدي.

-أراكي اليوم بخير يا إيمان، أنت تتحسنين !

بابتسامة حانية تجيب ايمان، ابتسامة أعادت الحياة لوالدتها التي تنتظر سماع صوتها و شفائها أكثر من أي شيء.

لم يطل حديث الطبيبة النفسية معها سوى لنصف ساعة هدأت فيها من روعها ودعتها لتتحلى بقليل من الصبر في مرحلة علاجها القادمة، لتنتقل بعدها إلى يمينة، يمينة التي كانت تستمع إلى حديثهما في هدوء واهتمام.

-الصبر، تحلي بقليل من الصبر يا يمينة، لقد مر الكثير ولم يتبقى إلا القليل وأعدك أن أحاول جاهدة كي يبرمج اسمك في عمليات الأسبوع المقبل، اتفقنا ؟.

هي كلمات خفيفة أظهرت مفعولا كالسحر على يمينة التي أصبحت سعيدة فجأة وكأن شيئا لم يكن.

حين فرغت الطبيبة من حديثها معها اتجهت نحو أمي، سحبت الكرسي الأبيض المقابل لها واتخذت منه مجلسا، بينما بقيت أقف عند النافذة مرتدية ثوب التفاؤل متصنعة بعض الهدوء.

-نادرا ما يحدث ويخبرني الأطباء أن أحد زوارنا يستعد لعمليته بشجاعة كبيرة كالتي أراها في عينيك الآن، دعيني أخبرك أنني أشعر بالفخر قبل أن نبدأ جلستنا.

ابتسمت أمي في إشارة منها للطبيبة كي تسترسل:

- حدثني الجراح عنك قبل أن أزورك هذا الصباح، كم أنك امرأة مقدامة قررت مواجهة المرض بدل الهروب منه مثلما يفعل الجميع.

و فعلا، كانت أمي كذلك.

-الأن، أود أن أسمع منك عنك، كيف بدأت هذه القصة ؟

راحت أمي تحكي لها عن بدايات مرضها قبل سنوات خلت، ثم عن رحلة علاجها لداء الرعشة أو ما يسمى ب: الباركينسون، التي اتضح في النهاية أنها كانت رحلة علاج في اتجاه خاطئ كانت نهايته اكتشافٌ لورم دبقي في الدماغ.

في منتصف الحديث تعبت أمي، خانتها الكلمات مثلما خانتها صحتها تماما، على حين غفلة توقفت عن السرد نتيجة التعب، تعب كلما شعرت به كلما أحست بحجم الانكسار داخلها، ولا أسوء من انكسار صحي يشعرك بقيمتك الحقيقية وبضعفك أمام نفسك، وأخيرا بسخافة الحياة. أكملتُ سرد القصة بدلا عنها بدموع لم يراها سواي، كان كل شيء في يبكي إلا عيني، كيف لا أفعل؟ وأغلى ما على قلبي أتعبها الحديث وفرت منها الكلمات، تتلافى الأمر بطريقة كوميدية وتقول:

- تحدثوا بدلا عني، الملعب لكم.

سعدت أمي بذلك اللقاء جدا، بل وتحدثت معها بتلقائية لم ألمسها منها منذ مدة، صار الجميع يعاملها فيها بشفقة واضحة وصارت هي الأخرى تواجههم برسمية جافة، بينما قضيت أنا تلك الجلسة في تصحيح بعض الجمل التي أصبحت تنهك لسانها بحيث يعجز عن نطقها بشكل سليم وواضح.

الساعة تشير إلى الواحدة بعد الظهر، هاتفي يرن منذ الصباح بلا توقف حتى كاد ينفجر من هول المكالمات التي سقطت عليه دفعة واحدة، كل أفراد عائلتنا وأصدقائنا يتحرون حول حقيقة دخول أمي إلى غرفة العمليات بعد أيام ولم أعد أقوى على الرد على أي مكالمة بعد.

بعد الظهيرة، جاء أبي وأخي محملين بالطعام، الحب والكثير من القصص التي فاتتنا منذ أن دخلنا المستشفى، يمينة هي الأخرى كانت في انتظار زوجها الذي حدثتنا عنه كثيرا في الليالي الماضية، ظلت تطالع أخي وهو يحادث والدتي في حنان، لمحتُ في عينيها دمعة غابرة مرت مرور الكرام بعد أن مسحتها فور دخول زوجها علينا.

كان رجلا تظهر طيبة القلب على محياه، بشوشا ضحوكا يمازحها ويرفع من معنوياتها علنا دون أن يخجل من تواجدنا جميعا في غرفة واحدة، ورغم بعد المسافة بين مقر سكنهم وبين المستشفى، إلا أنه كان يزورها باستمرار دون ملل، يأتي محملا بالأغراض التي أوصته بإحضارها من ملابس ومستلزمات مهمة، يخبرها أن قدمه تؤلمه بعض الشيء بسبب قيادة السيارة لكن الأمر غير مهم، "المهم أن تعودي إلينا سالمة، الأولاد بخير لا تقلقي".

تعود مشاهد مسلسل حلاوة الدنيا لبسط سيطرتها على ذهني مرة أخرى، عندما عاد مرض السرطان لينشط مرة أخرى في جسم أمينة بعد شفائها، كيف تخلت عن نفسها بينما تمسك بها شريكها رغم ثقل الحمل عليه، كيف ساند قرارها بعدم العودة إلى العلاج وأهتم بها واحتواها كطفلة. زوج يمينة ربما هو نفسه سليم، لكن على أرض الواقع، بعيدا عن وسامة ظافر العابدين وجودة الكاميرات والموسيقى الخلفية المؤثرة، رأيت في زوجها النسخة الأصلية للرجل الشهم الذي لا يتخلى عن شريكته عند أي منعرج من منعرجات الحياة، مهما بلغت خطورته واشتدت عواقبه. بينما ظهر سليم في عيني كنسخة مقلدة ومبتذلة جدا أمامه.

وقت الزيارات يمر سريعا، بينما تمر ساعات المساء ثقيلة جدا لا تشعر فيها سوى بالملل والجوع. حملت ما تبقى من الغداء في لتسخينه المايكروايف الجماعي للمستشفى بينما أعلنت معدتي تمردها على موعد عشائها المعتاد. باغتتني امرأة بطلب تسخين طعامها هي الأخرى نظرا لعدم معرفتها لكيفية تشغيله وقد كادت تفسده صباحا على حد قولها.

-المايكروايف الموجود عندي في المنزل لا يشبه هذا إطلاقا.

قالت بعفوية.

-الأمر سهل اضغطي على زر التسخين أولا ثم على التوقيت...

وقبل أن أكمل جملتي قالت في ضجر:

-حسنا حسنا كفاك، لا أريد التعلم، إذا احتجت لتسخين شيء ما سأطلبك منك ذلك، لا عقل لي الآن لتعلم تشغيل هذه الأجهزة.

قالتها ممازحة، أجبتها:

-حسنا لا مشكلة في ذلك، أنا في الغرفة المقابلة تماما يمكنك مناداتي متى احتجت لذلك.

- نعم لقد سبق وصادفتك بالأمس وأنت تدخلين الغرفة مع امرأة تحملين ملامحها ؟ والدتك أليس كذلك ؟

-صحيح، أنا هنا مع أمي.

- شفاها الله، ورم ؟

-بالضبط، ورم في الدماغ.

- تماما مثل ابني.

-ابنك ؟.

-نعم ابني، يبلغ من العمر ست سنوات، أصيب بورم في الدماغ قبل سنة من الآن، ونحن على أبواب عمليته الثانية.

-هل كان هناك عملية أولى ليستدعي الأمر وجود الثانية ؟

-نعم، في عمليته الأولى تفاجأ الأطباء بوجود الماء في محيط الجمجمة، اضطروا لسحبه وبرمجة عملية أخرى لاستئصال الورم.

أُصعق في كل مرة يُحكي فيها مرض أحدهم وكأنني اسمع هذا النوع من القصص لأول مرة في حياتي، خاصة إذا كان هذا المريض، طفلا.

-هل بإمكاني رؤيته ؟

قلتها دون تفكير، ظننت لوهلة أنها ستخبرني أنه نائم أوأنها ستتحجج بشيء ما لكنها هزت رأسها موافقة بكل لطف.

كان اسمه عبد الله، بوجه دائري وخدود ممتلئة وجميلة، وبيجامة لطيفة جدا جعلتني أجلس إلى جانبه أحادثه حول مدرسته وأصدقائه.

صباح اليوم الرابع في المستشفى كان صباحا مبهجا جدا، بدأ بإعلان الأطباء عن خروج إيمان والطفل الأشقر المشاكس من المستشفى نظرا لتحسن حالتهم الصحية. سعد الجميع بتعافيهم وتمنى لهم دوام العافية ولكل المرضى الذين لا يزال هذا المستشفى يحتضنهم.

وبالرغم من حزني الطفيف على فراق الخالة جميلة في ذلك الصباح، إلا أنني كنت سعيدة من أعماق قلبي لشفاء ابنتها، صحيح أنها لم تستعد قدرتها على الكلام بعد، ولا حتى قدرتها على المشي بشكل طبيعي، إلا أن تعافيها كان مسألة وقت لا أكثر، أما الأشقر الصغير فاتضح أنه سليم هو الأخر من أي ارتجاجات في المخ.

تمنيت يومها أن تحظى أمي بنفس النهاية، أن أراها تخرج من هنا سالمة معافاة، تخيلت مشهد وداعها للجميع وهي تتمنى لهم الخروج من ذلك المكان في أفضل حال، تمنيت هذا ليمينة ثم لعزيزة ثم للحاجة التي تشبه جدتي حتى وجدت نفسي أتمنى هذا للجميع، حتى لابنة الخالة ليندة التي لم أكن قد تعرفت عليها بعد، سمعت الأطباء يتحدثون عنها بالأمس، يقال أن هذه العملية هي الثالثة التي تجرى لها، وأن الأمر بحاجة إلى معجزة حقيقية هذه المرة. لم أجرئ على دخول غرفتها

يوما أو حتى على إلقاء التحية عليها مثلما تفعل عزيزة كل صباح، خفت أن أتعلق بها هي الأخرى، تكفيني أمي، يمينة، عزيزة، الحاجة وحتى سعاد تلك التي كانت تصرخ في الرواق. يكفيني هذا القدر من القلق.

يومها، مر وقت الزيارات سريعا جدا، ووجدت نفسي بعدها أنا أمي ويمينة وحيدين في الغرفة، غياب الخالة جميلة أثر على طاقة الغرفة بشكل رهيب، افتقدنا وجودها وكأننا نلتقي منذ سنوات طويلة، نحن الذين جمعن القدر منذ أيام فقط.

بعد العشاء، يمر الممرضون في دورية ليلة، يحقن المرضى بأدويتهم ليعم بعدها الهدوء أرجاء المستشفى وكأنه مكان مهجور لا يشبه إطلاقا ما كان عليه وقت الظهيرة والزيارات بحيث يصبح وقتها أشبه بسوق الجمعة. نامت أمي سريعا نتيجة الأدوية التي تتناولها منذ أن وطأت قدمنا هذا المكان، بينما بقيت أنا ويمينة مستيقظين نتبادل أطراف الحديث في فضفضة ليلية هادئة.

-محمد هو الأكبر، تليه ميساء ثم الصغيرة أية.

-أية، أحب هذا الاسم جدا، صديقتي طفولتي تدعى أية.

-أية وبحكم صغر سنها، أكثر من تأثر بغيابي عن المنزل، تكلمني حوالي العشر مرات يوميا، صباح قبل الذهاب إلى المدرسة، عند الظهيرة وبعدها، مساءا فور عودتها وقبل موعد نومها.

-أعلم، غالبا ما يكون آخر العنقود شديد التعلق بأمه، في صغري وبحكم إقامتنا بعيدا عن العاصمة، كثيرا ما كانت أمي تسافر ونبقى برفقة أبي بمفردنا، مرة لرؤية عائلتها ومرة لزيارة طبيبها، كنت أطالبها بالعودة سريعا لأنني لا أقوى على فراقها.

-أمنيتي الوحيدة يا ابنتي هي أن أشفى سريعا و أعود إلى أطفالي.

-ستعودين، أنا متأكدة من ذلك.

- أحمد لله أنني اكتشفت مرضي على الأقل، تخيلي أنني أصارع منذ عشر سنوات آلام رأسي الرهيبة بالبانادول. ولم أكتشف أمر الورم سوى منذ أشهر قليلة فقط .

قلت بدهشة: -عشر سنوات كاملة

- هذه المرة وقبل أن أزور الطبيب، طلبت من الله في صلاتي، أن يظهر لي علتي التي تختبئ خلف حجاب أيا كانت، وكل شيء من عند الله مرحب به.

لمحت دمعة في عينيها وهي تردد على مسامعي دعائها وقد بدا عليها أنها قد عانت في سنواتها الأخيرة أكثر من أي وقت مضى.

حكت لي عن أطفالها بحب، عن محمد الذي يعتبر نفسه مسؤولا عن أخواته الآن، وعن ميساء التي تهتم بشؤون المنزل رغم صغر سنها وعن أية التي تشاغب وبدأت في إتعاب من حولها، في تعبير منها عن اشتياقها لوالدتها.

أكملت حديثها وراحت تتثاءب بشدة، وقد لاحظت أن النعاس قد باغتها، تركتها لتنام إلى جانب أمي التي غطت في نوم عميق منذ أكثر من ساعتين، رحت أتجول مجددا في الرواق وقد بدا لي أنها ليلة عاصفة وممطرة، أمشي ذهابا وإيابا بخطوات بطيئة وأنا أمسك بمعطفي جيدا خوفا من تسلل أية نسمات باردة، أجوب بناظري في المكان وكأنني أراه لأول مرة.

-جات الشتا وجاو لرياح اي ليك اه وعدي.

قالتها لي عزيزة وهي تمر بجانبي كالشبح.

-لقد أخفتني، أليس هذا موعد نومك؟

- يبدو أن النعاس سيكون خصمي لهذه الليلة، بالمناسبة، دعيني أخبرك أنني لست بمفردي، سعاد تقف خلفك تماما.

التفت خلفي بسرعة لأجد سعاد تردد مكملة الأغنية:

-وجات لهموم قوية هاي ليك اه وعدي.

انطلقت ضحكتي عالية وأنا أنظر لهن، كلتاهما تعاني من أورام غريبة في الدماغ، تغنيان في سخرية وأنا التي ترقد أمي في مشهد مشابه بالغرفة، أضحك بشدة.

من الرائع أن يتحدى المرء ما يخشاه، أن يقف في مواجهة أخبر مخاوفه، في سخرية.

-أنت أيضا هنا؟

-أجابت سعاد سريعا:

-لا نوم لنا حتى نكمل تسميع هذه الأغنية كاملة، مع كل هذه الأمطار، أظن أنه توقيتها المناسب لا محالة.

وراحت تكمل كلمات الأغنية.

قلت لعزيزة مباغتة:

-ألست نايلية؟ أسمعينا قصيدة من قصائدكم ودعينا نستمتع.

-سأسمعكم قصيدة لكن ماذا سيكون لي في المقابل؟

- قصيدة!

- متفاهمين، قصيدة بقصيدة.

أخذنا ثلاثة كراسي من غرفنا وجلسنا بجانب النافذة الكبيرة المطلة على ملعب براقي الذي لم تنتهي به الأشغال بعد. انضمت إلينا سيدة لم أعرف من أي رواق أتت المسكينة، لكن يبدو أنها تشعر بالملل هي الأخرى.

راحت عزيزة تلقي علينا أبياتا شعرية نايلية أصيلة:

طلت صاحبة الشعور من الخيمة

وقلبي راح ليها ومولاش

عينيها بالشفر يتدلى كيف المطر من الغيمة

وأنا من حبها قليبي ميبراش

زاد عليا عذابي من ذيك البسمة

وقالي بوها اذا نتا ماكش ولد عمها ما يشقاش

زادت عليا وهولتني ذا الكلمة

وعرفت روحي منها مريض منشفاش

-أحسنت، برافووووو.

راحت سعاد تصرخ وكأنها متأثرة بجمال وعذوبة كلمات عزيزة في غزل صاحبة الشعر الطويل، بينما ظلت السيدة التي شاركتنا تلك الجلسة توزع علينا ابتساماتها في هدوء، قلت لعزيزة:

-المقطع ناقص يا عزيزتي، أين البقية ؟

-لقد نسيته، أكله الورم الذي ينهش مخي.

وأطلقت ضحكة طويلة ضحكنا جرائها جميعا. وكم هو غريب أن نضحك أوجاعنا، وهل ندري متى تضحك الأوجاع ؟ ربما حين تصبح أعمق من الحقيقة، نصبح وقتها مجبرين على الضحك لا مخيرين، ضحكات لا معنى لها ولا طعم ولا خيار لنا غيرها، ضحكات مريرة تخرج من أقسى انكساراتنا إلى مرارة واقع لا نملك أن نغيره أو نختار غيره.

قالت عزيزة مباغتة:

-وأنت أين القصيدة التي وعدتنا بها يا لالة ؟

نسيت تماما أنني قد وعدتها بقصيدة، خيل لي أنها ستنشد لنا أبياتا لن تنتهي حتى طلوع الفجر لكنها أنهتها في أقل من دقيقتين وحشرت بعدها أنا في الزاوية.

-في الحقيقة، عقلي مشوش و لا تستحضرني أي قصيدة الآن رغم حبي الكبير لها، لكن قصيدة حيزية للشاعر بن قيطون ابن بلدتي سيدي خالد ببسكرة والتي يتغنى بها الشعر البدوي منذ قرن من الزمن، من أحب القصائد إلى قلبي، لطالما اعتبرتها قصيدة وفاء قبل أن تكون قصيدة رثاء لفقيد.

-لقد سمعت عنها من أحد جلسات العجائز في الجلفة، أليست قصة تلك الفتاة الجميلة التي ماتت من شدة الحزن، بعد أن قام والدها بتزويجها من غريب، وتركت ابن عمها الذي أحبته منذ نعومة أظافرها ؟ قالت عزيزة.

-نعم، في المجمل، تتضارب الأقاويل و الروايات حول حقيقة موتها، ، ما جعل للقصة حدين بين الواقع والأسطورة، لكن هناك ثلاثة قصص تم تداولها بشكل واسع وقرأت عنها في عديد الكتب أيضا، ويرجح أن تكون أحدها هي الأقرب لقصة حيزية الحقيقية.

حيزية بنت أحمد بن الباي من قبيلة الذواودة، يقال بأنها كانت فائقة الجمال ونشأت بين قرية سيدي خالد ببسكرة (ولاد جلال حاليا) وبازر بالعلمة وهذا ما كتب على قبرها بالحرف الواحد.

وحسب الرواية، فإن حيزية عاشت حياة بدوية بحتة بين الخيم، حالها حال البدو الرُحل الذين ينتهجون على الترحال والتنقل كنمط حياة، جمعتها قصة حب عميقة مع ابن عمها سْعيد بالسكون فوق السين والعين كذلك، الذي تكفل به عمه والد محبوبته بعد أن توفي والداه تاركينه يتيما ووحيدا.

وبعد انتشار قصة حبهما للعلن، قام أحمد بن الباي والد حيزية بطرد ابن أخيه سْعيد خوفا على سمعة ابنته وسمعته أمام القبائل الأخرى، فسارع لتزويجها بأحد الفرسان الذين كانوا يتهافتون عليها لشدة جمالها وعراقة أصلها، و أصيبت بعدها بمرض لازمها الفراش ا وهذا حزنا على فراق سْعيد، ووفاتها المنية عام 1878 وهي في عامها الثالث والعشرين حسب ما كتب في القصيدة، وتعتبر هذه الرواية الأكثر شيوعا والأقرب للحقيقة التي يصدق بها الأغلبية.

ويحكى أيضا أن حيزية تمسكت بسعيد حتى خضع الجميع لرغبتهما وتزوجا فعلا، لكن حيزية وبعد فترة قصيرة أصيبت بمرض خطير أفرشها التراب بعد مدة.

وفي رواية أخرى، قيل أن حيزية وسْعيد قررا الهرب سويا والعيش بعيدا عن القبائل التي تقف حاجزا في طريق سعادتهما وتحاول دفن كل ذلك الحب الذي بينهما، لكن المفاجأة كانت حمل حيزية بطفل غير شرعي من سْعيد، الأمر الذي جعلها تغرق في الشعور بالذنب، وانتحرت بعدها جراء ذلك الإثم الذي اقترفته في حق نفسها وفي حق قبيلتها، واعتُبرت هذه الرواية من أضعف الروايات آنذاك، نظرا لقلة الدلائل فيها وأيضا للبيئة المحافظة التي ترعرت بها حيزية و التي تتنافى

تماما وما حُكي في هذه القصة، لكن الحقيقة الوحيدة في كل ما سبق أن نهاية كل هذا الحب كان فراق الموت الحاسم والمُبكر لقصة حب لم تكتمل.

-وسَعيد، ماذا حصل له ؟ قالت سعاد.

-اسمه سْعيد بالسكون وليس سَعيد بفتح السين، لم تتطرق أغلب الحكايات لمصيره، بل و ركزت أغلبها على حيزية وقصيدة رثائها التي كانت بطلب منه هو شخصيا متحاشية نهايته المأساوية

قصد سْعيد صديقة الشاعر بن قيطون ليرثي له حبيبته حيزية، بقصيدة وداع تليق بها وبمقامها في قلبه، وهذا ما حصل فعلا في الحقيقة، وقد شوهد سْعيد بعدة مدة يمشي في أزقة سيدي خالد في وقت الظهيرة أين تكون الشمس "حامية" وهو يكسو وجه بالقطران تعبيرا عن حداده وحزنه على فراق محبوبة القلب حيزية.

لكن مؤخرا خرج الروائي الجزائري واسيني الأعرج بقصة مخالفة تماما لما روي في القرن الماضي، حيث قام بدراسة وبحث طويل حول كل هذه القصة، استنتج منها أن سْعيد غير موجود إطلاقا وأن شخصيته كانت غطاء فقط لقصة حب الشاعر بن قيطون وحيزية نظرا لعدم وجود قبر سْعيد بين قبور كل عائلة بن الباي. واعتُبر المؤرخون طرحه ضعيفا وتغييرا للحقائق التي رواها سكان المنطقة منذ قرن مضى، وقد أثار بذلك حفيظتهم بحيث اعتبروا الحاية أعمق وأقدم من أن يقدم حولها تأليفات سطحية ناتجة زيارة ميدانية للقبور. و في النهاية، كل ما حكي سابقا، يبقى مجرد تأويلات لقصة قديمة دفنت حقيقتها الكاملة بالتفاصيل مع أصحابها.

قالت عزيزة بتأثر تظهر منه نصف ابتسامة:

-يا لها من قصة، قلت لكي أنني سمعت بها لكني لم أكن ملمة بكل هته التفاصيل، من أين لكي بهذا الحس الروائي كله يا أمينة ؟

-أليس لأنني كاتبة روائية يا عزيزة ؟ ألم تخبرك أمي بذلك بعد؟ إنها تخبر الجميع بالأمر.

-أخبرتني أخبرتني، لكن السؤال المطروح الآن، أين القصيدة التي وعدتني بها ؟

- صحيح أنني أحب قصيدة حيزية لكنني لا أحفظ منها إلا الأبيات الأولى:

عزوني يا ملاح في رايس لبنات

سكنت تحت اللحود ناري مقديا

يا خي أنا ضرير بيا ما بيا

قلبي سافر مع الضامر حيزية

يا حصراه على قبيل كنا في تاويل

كي نوار العطيل شاو النقصيا

-القصيدة طويلة وتحكي الكثير والكثير ولا أحفظ منها سوى أول ثلاثة أبيات.

- لحسن الحظ تحفظين قصتها، ما قلته يا عزيزة كان إجحافا في حقنا جدا، أنظري لما روته أمينة وما رويته أنت،

قالت سعاد بسخرية.

-وأنت ؟كيف حالك؟.

قالتها عزيزة موجهة كلامها لسعاد.

- و من أين لي بقصص الفنتازيا هذه التي تحكونها ؟ ستروي لنا السيدة التي تجلس بهدوء شيئا ما نكمل به ليلتنا ونخلد إلى النوم.

أجابت السيدة بهدوء اعتدناه منها منذ جلوسها معنا:

- ومن أين لي أنا أيضا يا ابنتي؟ جئت كي استمع لكن وها أنا ذا استمتع بذلك.

نظرت سعاد إلى السماء لثواني وأعادت تصويب عينيها نحونا وكأنها تذكرت قصة ما ثم قالت:

- أظن أنني تذكرت قصة حكتها لي جدة أمي، قصة من أعالي جبال الأوراس و الشاوية الأحرار كما كانت تردد دوما.

-أطربينا.

قالت عزيزة.

راحت تقول بلحن اعتدنا سماعه::

وعلاش نلوم يا لالالي يا انا وعلاش نلوم

يا لالالي يا أنا والعشرة كي تهون

من منا لم يستمع لهذه الأغنية والتي رغم كآبتها الجميع أحبها، تماما كالحياة.

قالت سعاد:

-في صغري، نحن الشاوية كنا نرددها في أفراحنا دون دراية منا عن قصتها الحزينة، ورغم أنني شخصيا أحفظها عن ظهر قلب إلا أنني لم أتذكر تفاصيلها سوى منذ أن تم إعادة غنائها مؤخرا.

يقال أن هذه القصيدة قد تم غنائها من طرف امرأة تزوج عليها زوجها وأحضر عليها "ضرة"، فما وجدت من سبيل للتعبير عن حزنها الشديد بفقدانه من بين يديها سوى أن رددت كلمات نابعة من القلب، على شكل قصيدة، وصفت فيها تعاستها أيام عرسه الذي أقيم أمام ناظريها بالتفاصيل، من إحضار الكبش للعروس وحنة العريس الذي أتى ليلتها إليها حسب قولها.

النسوة في الشاوية يرددن الاغنية في كل مناسبتهن، ويطلق على الأغنية اسم "كوستيمو لكحل" عكس الاسم الذي أطلقت به مؤخرا:"علاش نلوم".

-نريد سماع القصيدة كاملة يا لالة سعاد. قالتها عزيزة باستهزاء أضحك الجميع وأنسانا حقيقة أننا في مستشفى والساعة تشير إلى الواحدة صباحا.

-القصيدة طويلة، لكنني و رغم ذلك سأغني لكم منها مقطعي المفضل.

وراحت سعاد بعدها تردد كلمات الأغنية بصوت جميل لم يتوقعه أحد.

لمحنا جميعا دموعا سخية في عيني سعاد، ربما كانت لقصة مشابهة أو لشعور موازي لما تغنيه. لم يتجرأ أحدنا على سؤالها عن سبب تلك الدموع، و اكتفينا فقط بمواساتها بابتسامة.

لا وجود لإنسان سعيد على هذا الكوكب. كلٌ منا يحمل هما مختلفا، ذاك مريض وتلك لا تُنجب، أحدهم لا يملك المال وأخر لم يجد عملا، وأخرى تركها

حب حياتها. تختلف الآلام ويبقى الشعور واحد، و كل شخص يحمل في داخله قصة عظيمة لا يشعر بعظمتها سواه.

عدت إلى الغرفة بقلب منقسم، مبتهجة نتيجة الجلسة الجميلة التي حضينا بها منذ قليل، وقلقة لأن موعد عملية أمي يقترب، سعاد أيضا عمليتها اقتربت والانتظار قاتل، وما أصعب أن تنتظر مصيرا مجهولا، احتمال الفراق فيه يساوي احتمال البقاء، وأنت تقف هناك بين الاحتمالين وكأنك بين السماء والأرض، لا مكان لتتشبث به، مجرد جسد معلق في الهواء.

تحسست نبض أمي قبل أن أخلد إلى النوم، كان منتظما وقد بدا لي أنها قد غطت في نوم عميق منذ ما لا يقل عن ساعتين، نظرت إلى يساري، يمينة هي الأخرى في سبات. استلقيت على سرير إيمان الفارغ ورحت أطالع السقف في تساءل:

ترى كم مر على هذا السرير من قصص، رحت أتذكر تفاصيل رواية أحلام مستغانمي "عابر سرير" حتى أخذني النعاس.

ليلتها، حل الصباح سريعا وقد تعبت من صباح المستشفى جدا، تمنيت لو أنني أملك عصا سحرية تُسرع بالزمن، لأخرج أنا وأمي من هنا بسرعة مثل ما يحدث دوما في أفلام الكرتون.

تجلس يمينة في هدوء وهي تشرب كوبا من الحليب، بينما كنت وأمي نحتسي "قهوة حليب" ككل الجزائريين، عادة فرنسية بقيت آثارها على طاولات الفطور الصباحية رغم عدم توفيرها لأي طاقة للجسم تجعله يصمد حتى موعد الغداء، نظام غذائي سيء بدأ في التغير تدريجيا في السنوات الأخيرة بحيث أصبح الجزائري يحاول تناول بعض الأشياء الصحية صباحا بعيدا عن الكرواصون.

وبالحديث عن فطور الصباح، لاحظت وجود سيدة توزع الكرواصون كل صباح على المرضى وأهاليهم على حد سواء ، ظننتها في البداية ممرضة، لكنها لم تكن سوى فاعلة خير، تطلب الدعاء لابنها" الحراق" الذي اختار الذهاب في قوارب الموت بدل البقاء هنا في الجزائر. كانت تطلب منا الدعاء كي يعود لها سالما معافا

ظاهرة الحرقة أصبحت مخيفة جدا، شباب يافع يركب قواربا خشبية يقطع بها مسافات كبيرة عبر البحر دون أي خوف من العواقب. آلاف الأمهات احترقت قلوبهن بعد أن التهمت الأمواج فلذات الأكباد بلا رجعة، حتى صار من المستحيل أن تجد عائلة لم يهاجر أحد أفرادها سرا، ستجد قصصا وحكايات تبكي لها الأعين و تحزن عليها القلوب، الأمر مؤلم وتراجيديا القصص التي أصبحت تُحكى لي هنا في المستشفى صارت تؤلمني جدا.

في ذلك اليوم، جاء طبيب أمي شخصيا لرؤيتها، كانت جالسة على كرسيها المعتاد محدقة بالنافذة بعد أن وضعت طعاما للحمام، وانتظرت وصوله ليتناوله أمام ناظريها.

دار بينهما حديث حول حالتها النفسية وعن استعداداتها للعملية، و كانت إجابتها ككل مرة:

- نعم، أنا مستعدة.

و كان هذا جوابها في كل مرة تُسأل فيها عن رغبتها في دخول غرفة العمليات.

قرار أمي بإجراء العملية كان قرارا شخصيا بحت لم يتدخل فيه أحد.

-سأُجري هذه العملية وسأخرج منها بمعونة الله، ما كل هذا الخوف الذي أراه في أعينكم ؟ تساءلت أمي.

و كانت أمي فعلا امرأة حديدية بقلب قوي لم أعهده عند أحد سواها. من سيتحمل خبر إصابته بورم في الدماغ بابتسامة؟

تذكرت اليوم الذي أعلنت فيه لنا الطبيبة عن مرضها، كيف صُدمت للحظات ثم دخلت في نوبة بكاء حادة، لأجد أمي بابتسامتها المعهودة في مواجهتي وهي تقول:

-ما بك ماما ؟لا تخافي، سيمُر كل شيء.

وكأنها تستصغر أعظم مصائب الحياة، بابتسامة.

"كان يا مكان..

الحب مالي بيتنا

ومدفينا الحنان

زرنا الزمان

سرق منا فرحتنا

الراحة والأمان"

الآن و في المستشفى الجو بارد، بارد جدا. السيدة الجميلة ميادة الحناوي رفيقة ذكريات أمي غائبة و لم تصدر أية أغاني منذ سنوات طويلة، الأمر الذي جعل ماما تتمسك بقوة بأغانيها القديمة.

تمنيت لحظتها لو أن ميادة أطلقت أغنية ما تفرح بها قلبي أمي، خاصة في ظل هذه الظروف التي كنا نمر بها، لكنها لم تفعل. تكتفي في حفلاتها القليلة جدا (إذا لم نقل النادرة) بإعادة أغانيها بينما تردد خلفها الجماهير:

أنا بعشقك أنا

أنا كلي لك أنا

كل أغانيها رائعة وخاصة تلك التي تحمل معها صوت أمي وهي تردد خلفها: "بتحبني ولا الهوى عمرو ما زارك ؟"

وقررن أن أدخل الفرحة على قلبي أمي، و مراسلة السيدة ميادة كانت فكرة سديدة

وللأسف لم أجد أي إيميل خاص بها. كل ما وجدته هو صفحة على الفايسبوك يُرجح أن تكون مسيرة من طرفها أو من مدراء أعمالها فقررت أن أكتب لها رسالة، ربما تقرأها يوما ما، وتُغني.

سيدة ميادة، جميلة الجميلات.

أما بعد، أنا أمينة، كاتبة جزائرية من عشاق أغانيك التي ورثت عشقها عن أمي العزيزة و التي هي محور رسالتي اليوم.

منذ طفولتي وأنا أستمع بشغف لحكايات ماما عن الأغاني التي حملت صوتك، وكيف كانت تدندنها كل ليلة و تتلقى على إثرها التوبيخ من شقيقها الأكبر لكن بلا جدوى، لتعيد الكرة في الليلة التالية والتي تليها ولبقية ليالي الأيام الخوالي، حكت لي عن جمالك وكيف أسرت قلوب الناس من جيلك حتى صرت أيقونة يضرب بها المثل الجمال والأنوثة. في يوم زفافها من أبي، تصادفت أثناء صعودها السلالم بشقيقها من الرضاعة نازلا من عمارتهم ليباغتها قولا: " حورية، لقد أصبحت تشبهين ميادة.. أصبحت جميلة جدا " وقد حُفرت كلماته في قلبها. لقد كانت تشبهك فعلا يومها وقد رأيت ذلك في الصور.

ماما الآن مريضة، مريضة جدا. أصيبت بورم في الدماغ وهي الآن على أبواب رحلة طويلة جدا من العلاج، أول خطوة فيها ستكون عملية استئصال خطرة. أظنك تتساءلين قائلة: "ما شأني ؟"

شأنك يا سيدتي أن أمي تحبك. لطالما تساءلت عن سبب غيابك فنيا، وعن محبيك أيضا، وتمنت كثيرا أن تستمع لشيء جديد من صوتك الرائع الذي يبعث بالدفء في روح الإنسان عندما يستمع إليه.

الآن، هلا غنيت لنا شيئا ؟

كان يا مكان الحب مالي

لعبة الحياة

هل سمعتم يوما عن لعبة الحياة ؟

لعبة يكون الفوز فيها أن تبقى على قيد الحياة ؟

ربما سمعتم عنها في فيلم ما أو كتاب ممتع قرأتموه في إحدى ليالي ديسمبر، لكنني وفي تلك الأيام، رأيت اللعبة تُلعب أمامي، في حماس.

يلعب الناس هُنا لعبة خطرة، أبطالها مشارط وأيادي أطباء تعرفوا عليهم منذ أشهر قليلة أو ربما أسابيع، أي ثقة هذه التي تجعل شخصا (في كامل قواه العقلية) يضع رأسه بين يدي غريب يدعي أنه سينقذه من رحيل محتم؟ مفارقة غريبة، لا يجد إجابتها إلا صاحب الداء الذي استنفذ كل حلول العالم ليلجئ لحل غريب كهذا، كغريق يتشبث بقشة.

أن يختار المرء خوض غمار لعبة احتمالية نجاته فيها على المحك، هي شجاعة عظيمة ليست متاحة للجميع، و هذا القلب الحديدي والصلابة التي هو عليها هي الأخرى ليست متاحة للجميع. لكن تبقى المغامرة أحيانا حلا مناسبا بكثير من انتظار مصير مجهول قد يصل في النهاية إلى ما يهرب منه كل البشر، الموت.

الحياة لعبة كبيرة وقبول كل شروطها هو الحل الأمثل لمجابهتها. لا مكان للجبناء على هذه الأرض، وحتى إن تحتم على المرء الموت، فليمت مثل النبلاء.

صدقت منذ البداية أن ما تقوم به أمي هو مغامرة كبيرة، بحياتها وبنا نحن أيضا. أن يفتح رأسك لعدة ساعات متواصلة ثم يغلق مرة أخرى وكأن شيئا لم يكن بالنسبة لي كان ضربا من الخيال. تساءلت يوما، هل هي حقا مغامرة ؟ قلة حيلة واستسلام؟ أم خيار إجباري لطريق مسدود؟ ولم أجد أي جواب.

يلعب الجميع هنا وبأوراق مكشوفة، يستعدون لمواجهة كل مطبات اللعبة بما في ذلك العواقب، العواقب الوخيمة، وهذا ما يسمى فعلا بلعبة الحياة.

صباحا، أستيقظ قبل أمي، أقف عند النافذة الكبيرة لمشاهدة الشروق، أعود أدراجي لمساعدتها في ارتداء ملابسها ونوقظ بحديثنا الهادئ يمينة التي تلقي علينا التحية بابتسامتها المعهودة.

أمر بعزيزة، سعاد والحاجة التي تشاركهم الغرفة، ألقي التحية الصباحية على الجميع وكأنهم أصدقائي الذين أعرفهم منذ سنوات طويلة، أمُر بغرفة الفتاة التي لم أجرئ على التعرف عليها بعد، ألقي التحية على والدتها بسرعة وأفر هاربة.

أما عبد الله الصغير فكان يمر علينا بدل أن نمر عليه، ببدلة نومه اللطيفة ورأسه النصف محلوق والضمادة، يبتسم لنا ملوحا بيده ويهم مغادرا.

طلبت من والدي يومها أن يشتري لي بعض الألعاب والبالونات الملونة، كنت أنوي مفاجئة عبد الله بها، حزن يومها جدا بعد أن قررت إدارة المستشفى تغيير غرفته التي كانت بجانبنا ليتجه لقسم الأطفال، مع أقرانه.

نفخت البالونات رفقة أمي ويمينة واستمتعنا بذلك كالصغار. كل شيء هنا يدفع المرء للبحث عن أمر ما ليبتسم، يجعله يدرك مدى أهمية التفاصيل الصغيرة التي تنشر البهجة، وتحقق له تلك السعادة اللحظية، كل شيء هنا يجعلك تهرب من أكبر الأوجاع بأصغر الأمور وأكثرها تفاهة.

فرحة عبد الله بهديته كانت غامرة جدا أنستني للحظات قلقي بشأن الغد، الغد الذي ستدخل فيه أمي غرفة العمليات، بقرار كان واضحا وقطعيا منذ البداية، ولا عودة منه بعد الأن.

وعلى غير العادة، مر يومنا سريعا، زارنا يومها الكثير من أقاربنا الذين جاءوا من أماكن بعيدة لمساندة أمي في محنتها، لكن زائرة مميزة أدخلت الفرحة لقلب أمي، صديقة قديمة قدمت من مدينة أخرى قاطعة مسافة طويلة، ما إن رأتها أمي حتى انفجرت باكية:

-صدقيني لست أبكي بسبب ما ألات إليه حالتي، أبكي لأنني اشتقت لك ولأيامنا.

قالت أمي.

مرت جلسة رائعة بين إحياء الذكريات القديمة و بين رواية القصص التي جمعتهم سويا في الأيام الخوالي. كيف كانت أمي تساعدها في تربية أطفالها، وكيف كانتا تتبادلان النصائح بحب عن كيفية التعامل معهم، ولم يعد أي منا طفلا بعد الآن.

-العيال كبرت.

قالت صديقة أمي تلك ثم تنهدت تنهيدة عميقة.

رؤية الأصدقاء القدامى أمر مذهل، أن ترى شخصا لم تقابله منذ سنوات خلت، في تلك اللحظات وأنت تستحضر ذكرياتكم بحلوها ومرها، لثوان ستشعر وكأن تلك الذكريات قد كانت بالأمس القريب، وهذا فعلا ما شعرت به أمي يومها.

في المساء، جاءت أختي و أبي لنا بالعشاء، حضرت معهم بعض قريباتنا، أصرت أختي ليلتها في المستشفى على المبيت معنا لكن أمي رفضت قائلة:

-اذهبي إلى المنزل، لا تخافي، سيكون كل شيء على ما يرام.

وقد جمعت أمي كل أمان الدنيا وطمأنينتها في جملتها تلك. وبالفعل رحلت أختي وبقيت أنا ليلتها، بمفردي.

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف ليلا، عندما قدم الجميع ليتمنى لأمي حظا موفقا في العملية.

قالت عزيزة:

-خالتي حورية، لا تنسيني من خالص الدعاء، ذرية صالحة تؤنس وحدتي، لا تنسيني من فضلك.

-سأدعي لك يا ابنتي كي يرزقك الله من واسع فضله، " اللي خلق ما يضيع".

قالت دليلة، ابنة الحاجة التي تعرفت على أمي ليلتها:

إن شاء الله ستعودين سالمة غانمة إلى حضن أولادك يا رب. -

أجابت أمي:

-يا رب، وأمك أيضا شفاها الله، حكت لي أمينة عنها وعن دردشتهم اليومية، "حاجة وجها منور".

قالت الخالة ليندة، والدة الفتاة التي ترقد في آخر الرواق:

-أعرف تماما شعور الرهبة الذي يجتاحك الآن، جربته مرتين وأنا الآن على أبواب التجربة الثالثة، "طاب القلب".

"طاب القلب" بمعنى استوى، أو حتى طبخ زيادة عن حده، وربما احترق.

-العملية الأولى لابنتي كانت منذ عشرين سنة، أي عندما كان عمرها عشر سنوات فقط، تجمع الدم في رأسها ليشكل كرة صغيرة وجب إزالتها، لكن العملية التي قيل أنها ستكون "بسيطة" فشلت، خطأ طبي شنيع لم يعترف به من طرف الأطباء أو حتى رؤساء المصلحة.، شهران متتابعين من الغيبوبة، استيقظت منها شخصا آخر

غير ابنتي التي أحضرتها كي تتعافى، واضطررنا بعدها لإجراء عملية ثانية علنا نتلافى أخطاء الأولى.

تنهدت تنهيدة عميقة ثم أكملت:

-أتذكر وجه الطبيب عندها تفحص ملفها في اندهاش، وضع كلتا يديه على رأسه في استسلام ثم قال لي صراحة، "ناريمان لن تنجو من هذه العملية وحتى وإن وقعت المعجزة، ستستيقظ منها بتوابع ستغير مجرى حياتها تماما"، أخبرني أيضا أن حياتها في خطر حتى بدون إجراء العملية ولم يترك لي بذلك أي فرصة لتخطي هذه العقبة المخيفة، عقبة العملية. .

كان الجميع يحدق في الخالة ليندة في ذهول وكأنها تروي لنا قصة من قصص الخيال العلمي المدهشة.

أكملت:

-صليت كثيرا ورجوت من الله أن يشفي لي ابنتي ويردها إلي حتى لو عادت شخصا أخر لا أعرفه، المهم أن تعود.

ونجت ناريمان بالفعل! كان الأمر أشبه بالمعجزة حقا. لأشهر، لم أصدق ذلك وأنا أرى ابنتي إلى جانبي مجددا بعد كل ما عشناه سويا، والحمد لله الذي أراني تلك الأيام.

الآن وقد بلغت الثلاثين، أصيبت (مرة أخرى) بورم في الدماغ، بثمانية سنتيمترات، ومجددا نتيجة العملية الأولى المشؤومة وذلك الخطأ الطبي الذي لا يزال شبحه يطاردنا حتى هذا اليوم.

ورغم ذلك، لا أزال حتى هذه اللحظة، أتمسك ببصيص الأمل الذي تمسكت به قبل عشرين سنة وبنفس القوة وربما أكثر. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، وإن بعد العسر يسر وهذا يقيني بالله.

كانت أمي تنظر إليها بعينين دامعتين بينما بقيت سعاد وعزيزة يطالعانها بنظرة حزينة عديمة الحيلة.

قالت ابنة الحاجة مواسية:

-لا أذاقك الله طعم الفقد ولا أراك أيامه، ف والله إن القلب ليلخلع من شدته.

وقد بدا من صوتها أن قلبها قد خُلع من قبل.

-فقدت زوجي مبكرا، وأي زوج كان، لقد كان

un Marie exemplaire.

قالتها بلغة فرنسية سلسة تدل على إتقانها لها وبطلاقة، أي رجل هذا الذي يصلح ان يدعى بالرجل المثالي أو الرجل الذي يضرب به المثل ؟

أردفت قائلة وكأنها تؤكد لنا أن هذه الليلة ستكون ليلة فضفضة الذكريات الغابرة:

-كان موته سريعا ومفاجأ، لم أصدق رحيله لأيام، و حتى هذا اليوم لا يزال طيفه يراودني أينما حللت. أبقيت كل أشيائه مكانها ولم أغير شيئا، حتى عيادته بقيت هي الأخرى على حالها، طبيب قلب خُلع قلبي بموته.

بعد سنوات من وفاته، قررت كراء عيادته لنستفيد من أجرتها، رغم أنني أعمل كأستاذة لغة فرنسية وراتبي يغطي تكاليف حياتنا لكنني وددت ذلك وقتها،

وددت بعث حياة جديدة في المكان، أخذت اللوحة التي كتب فيها اسمه وتحتها جملة "طبيب قلب" وعلقتها على حائط البيت، كانت بمثابة هدف لي أولا ولابني ثانيا الذي ارتاد كلية الطب تكريما لوالده، أحثه دوما على الدراسة كي يظفر بنفس تخصصه ليحمل اسمه مجددا وهذه هي أمنيتي الوحيدة.

حكى الجميع ليلتها قصصه المؤلمة وتجاربه القاسية التي جعلت منه ما هو عليه اليوم، المرض والفراق و قصص أخرى موجعة تقوي من الإنسان وتصنع منه شخصا آخر أكثر صلابة وتحملا للحياة، رحل الجميع وبقي ثلاثتنا مجددا، أنا، أمي ويمينة في آخر ليلة قبل موعد الحسم.

افترشت سرير إيمان الفارغ أقصى اليسار، توسطتنا يمينة وعلى اليسار نامت أمي على سريرها المحاذي للنافذة، شعرت بأنني بعيدة عنها لكنني لم أرد أن أضايقها أثناء نومها في أخر ليلة هادئة لها، قبل بداية مغامرتها الحقيقية.

كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف، الظلام والبرد في الخارج كان على أشده، يمينة وأمي يدردشان كعادتهما، بينما بقيت أنا أقرأ بعض الأدعية في هدوء حتى سمعت أمي تقول ليمينة:

-تصبحين بخير يا يمينة، ليلة سعيدة.

قلت بسرعة:

-ماما، هل ستنامين؟ لا يزال الوقت مبكرا؟

-سأنام الآن حتى أستطيع الاستيقاظ لصلاة الفجر.

قالت هذه الكلمات و استدارت للجانب الآخر ثم قالت وكأنها تذكرت شيء ما:

-أمينة ؟

-نعم ؟

-تعلمين "بلي نحبك قد الدنيا ؟"

قالتها بصوت عذب لم أسمع مثله في حياتي.

-أنا أيضا، "نحبك قد الدنيا."

استدارت يمينة ناحيتي وقالت:

-لقد جعلتموني أغار... أين ابنتي لتقول لي" نحبك قد الدنيا "هي الأخرى ؟

-قريبا إن شاء الله، كل مر يمر.

استدارت أمي مجددا إلى الجانب الأخر وقالت مجددا:

-أمينة لا تنسي! "نحبك قد الدنيا".

ونمت بعدها على وقع كلماتها كالأطفال.

الثانية صباحا، وجدت نفسي أستيقظ وكأن الصباح قد حل، شعرت للحظة بأنني بحاجة ماسة لاستنشاق بعض الهواء من نافذة الرواق الكبيرة المطلة على ملعب براقي الذي لم يكتمل بعد، دلفت إلى هناك و إذا بصوت مرعب يأتي من داخل الحمام على يميني فعدت أهرول إلى الغرفة خائفة، حتى أنني ضربت الباب بقوة ما جعل أمي تستيقظ.

- أمينة، ما بك ؟

لا شيء، ذهبت للحمام لثواني فقط. -

قالت بثقة:

-هل رأيت أو سمعت شيء ما أخافك حتى اصفر وجهك لهذه الدرجة ؟

- لا، إطلاقا .

ساد الصمت بيننا لثواني، اتجهت بعدها مع لحافي نحو سريرها وقلت:

-هل لي بنومة بجانبك؟

- نامي يا ابنتي .

نمت ليلتها عند أمي وشعرت أنني لم أنم عندها منذ مدة طويلة جدا، عانقتها بشدة حتى طلع الفجر.

يوم العملية

مع أصوات الأذان الأولى للمساجد القريبة من المستشفى، وجدت أمي توقظني لأساعدها على الوضوء من أجل أداء الصلاة.

توضأنا سويا في طمأنينة وصلينا الفجر كل على حدا، وبعد أن فرغنا منها رحت أقرأ ما تيسر من سورة البقرة بينما ظلت أمي تسبح وتسبح حتى طلعت الشمس، كان شعاعها في ذلك اليوم قويا جدا وحرارتها حارقة رغم فصل الشتاء العنيد.

اجتمعنا في الغرفة صباحا لتوديع أمي، أنا، يمينة، سعاد، عزيزة، الخالة ليندة، دليلة ابنة الحاجة وسيدة أخرى لم أتعرف عليها، جاءت ربما بدافع الفضول أو الشفقة، لست أدري.

دقت الثامنة صباحا ودق معها باب غرفتنا في حزم، دخلت مساعدة الجراح علينا بزيها الأحمر، وكأنها تؤكد لنا استعدادها الكامل لدخول غرفة العمليات حتى استشعر جميعنا ذلك، بعدها بدقائق قليلة، دخل علينا ممرض شاحب اللون، وبيده آلة حلاقة.

منذ البداية، كنت أعلم أن هذا النوع من العمليات يتطلب حلق شعر الرأس كاملا، وقد أحطت أمي علما بذلك لتجيبنا بنفس نبرة القوة التي عهدناها عليها دوما:

-أين المشكلة في ذلك ؟ سينمو الشعر من جديد.

ورغم كل هذه الاستعدادات، إلا أن رؤية هذا الأمر مرعب جدا، واتضح أنه أكبر بكثير مما تخيلت، وفجأة خرج الجميع من الغرفة وكأنهم استشعروا وجود

مشهد مُقلق ومؤثر على الأبواب، بعضهم ودع أمي بعين دامعة والبعض الآخر راح يتمتم بكم هائل من الدعوات.

طلب مني الممرض مغادرة الغرفة، لكنني رفضت ذلك، وعقدت العزم لحظتها أن أكمل الطريق الذي بدأته بقلب حديدي تماما كالذي امتلكته أمي.

شرع في حلق رأسها رويدا رويدا حتى فرغ منه، شعرت لثوان بكل ما قد يشعر به الإنسان من سوء على هذه الأرض. تعود مجددا مشاهد مسلسل حلاوة الدنيا لتحط على ذاكرتي، في اليوم الذي قررت فيه أمينة حلق شعرها قبل أن يفتك به العلاج الكيميائي في تحد صارخ له، ولعواقبه.

لمحت دموعا غزيرة ولأول مرة منذ دخولنا المستشفى في عيني أمي، حتى هي لم تتحمل هول ما حدث وتأكدت لحظتها أن المصير يقترب، أكثر من أي وقت آخر.

طلب مني الممرض مجددا، مساعدتها في ارتداء طقم أزرق (مخصص للمرضى) وعلى الصعود لذلك السرير المتحرك لتلتحق أخيرا بغرفة العمليات، كان السرير عاليا ما جعلني أبحث عن ممرضة تساعدني في حملها، ما إن عدت حتى وجدت أمي قد صعدت بمفردها دون أن تلجئ لمساعدة أحد وكأنها تتحدى الجميع، ومن جديد.

عاد الممرض بعد دقائق قليلة ليرافقها إلى مجمع العمليات الذي يقبع في الطابق الأرضي، طلب مني لثاني مرة أن أعود أدراجي، وأتركه ليقوم بعمله، طلبت منه مرة أخرى برجاء أن يتركني لأرافقه إلى باب غرفة التخدير على الأقل.

ظلت كلتا يداي تتشبث بيد أمي بينما كنا نمشي في الرواق باتجاه المصعد، كانت نظراتها متأرجحة بين الخوف والشجاعة، الضعف والقوة وكل مشاعر الأرض المتضاربة في نظرة واحدة.

كانت أمي تعلم عن رُهابي من المصاعد، لكنني يومها قررت تناسي الأمر، قالت لي ونحن على بابه:

-أغلقي عينيك للحظات، لن تشعري بشيء.

فُتح باب المصعد وصعد ثلاثتنا، أنا، أمي والممرض، ولأول مرة في حياتي مرت ثواني المصعد سريعة جدا حتى وجدت بعدها الباب قد فتح بصرامة.

وكأنه "أفيش" لفيلم ما، وجدت نفسي أدفع بكلتا يداي، سرير أمي المتحرك نحو باب كتب فوقه بخط غليظ "مجمع العمليات"، وما إن فتح الباب الأوتوماتيكي حتى ظهر طبيب أمي مرتديا زيه الأبيض كاملا، رافعا ليديه بقفازين طبيين، على يمينه ثلاثة مساعدين وعلى يساره ثلاثة آخرين وفي منتصف الصورة تظهر أمي مستلقية وهي تلوح لي بيدها قائلة:

-اعتني بنفسك.

عدت بخطى مبعثرة إلى الغرفة، وقد بدت لي غريبة على غير عادتها.

الغرفة التي كان صوت ضحكاتنا، بكائنا وحتى أحاديثنا المختلطة بين كل ما سبق يملؤها ليل نهار، أضحت أشبه بالبيوت المهجورة.

قررت لحظتها أن أكتب رسالة لطيفة لأمي، وأجعلها تقرأها عندما تعود لنا سالمة من غرفة العمليات، تماما مثل ما كنت أفعل في كل مرة تسافر فيها أمي بعيدا

عنا، مرة لحضور زفاف أحد الأقارب أو لزيارة جدتي، لكن رسالة تلك المرة كانت مختلفة، مختلفة جدا.

وبخطي يدي رحت أكتب:

إلى الرائعة أمي.

أولا وقبل كل شيء، أود أن أتقدم إليك بشكر كبير، كبر الأرض والمجرات والشمس والقمر لأنك جعلتني على ما أنا عليه اليوم.

لم أتخيل يوما أن تكوني أنت في غرفة العمليات، بينما أجلس أنا هنا في شموخ أكتب لكي وإليك، شكرا من القلب لأنك جعلتني قوية صامدة، أعدك أن أعمل على زرع هذا في أطفالي مثلما فعلتي معي تماما.

أنت الآن في قلب المعركة التي استعد لها الجميع، لكنك دخلت ميدانها وحيدة. أعتذر لأنني لم أستطيع تقديم أي شيء يفيدك هناك سوى ذلك المقدار الضئيل من الدم الذي تبرعت لكي به عند دخولنا للمستشفى، أتمنى من قلبي أن يفيدك في شيء.

أعدك أنني لن أحزنك أبدا، سأفعل كل ما تريدين دون تذمر، سأغسل الصحون بعد العشاء ولن أتركهم حتى الصباح مرة أخرى، سأعيد كل شيء إلى مكانه حال فراغي من استعماله وسأرتب المنزل مرتين في اليوم، مرة في الصباح ومرة قبل النوم، لن أنسى الشاحن موصولا بعد اليوم و سأحفظ كل التعليمات التي ترددينها على مسامعي يوميا عن ظهر قلب ولن أفرط في إحداها أبدا، المهم أن تعودي، تعودي وفقط.

غلبتني دموعي لحظتها حتى توقفت يدي تلقائيا عن الكتابة. الكتابة التي كنت أفصح بها عن مشاعري لم تعد قادرة على تحمل كل ما يدور في داخلي.

استدرت لألمح يمينة تبكي بحرقة وكأن تلك التي دخلت للتو شقيقتها الحقيقية بالدم، بكيت معها بشدة وعوضت بذلك ما لم أبكيه

منذ أن علمت بمرض أمي، لم أبكي أمامها للحظة وأشعر أنني فخورة بما فعلت، لقد منحتها القوة التي كنت أنا بحاجة إليها.

أن تمنح القوة للآخر وأنت في أكثر لحظات ضعفك هو قوة عظيمة جدا، وقد أخبرتني عن عظمة هذه القوة صديقتي نفيسة.

نفيسة صديقة رائعة تعرفت عليها على الأنستغرام وبالصدفة.

سألت يومها متابعي صفحتي المتواضع عددهم، عن قصص غيرت مجرى حياتهم إلى الأبد، عاشوها شخصيا في فترات ما، فكانت قصتها من أقوى القصص التي رويت ليلتها.

كانت نفيسة فتاة جميلة جدا من الداخل ومن الخارج، وعدتها يوما وفي لقاء تليفزيوني على المباشر أن أدون قصتها في كتاب ما، لكنني لم أتوقع أن تجتمع هي وأمي في نقطة ما، محاربات السرطان، القويات.

حكت لي نفيسة عن حياتها قبل المرض، عندما أكملت دراساتها العليا وتوظفت كأستاذة لغة انجليزية متميزة بين قريناتها، بملامح لطيفة وروح ألطف دخلت قلبي، وقلب كل من سمع بقصتها.

نفيسة العاشقة للكتب، للحياة ولكل ما هو مبهج، تقدم لخطبتها في أحد الأيام شاب فوافقت على مقابلته، إرضاء لفضولها ولوالديها على حد سواء.

في البداية، لم ترق لنفيسة فكرة هذا الارتباط التقليدي البحت، وظلت تبحث له عن أي ثغرات أو عيوب تجعلها ترفض الخوض في غمار علاقة لم تتضح لها ملامح بعد، لكنه وفي كل مرة كان يجد لها سببا جديدا وملهما يجعلها تبقى قريبة منه، اهتمام لذيذ وطباع مهذبة وأشياء كثيرة بدأت تظهر جلية عندما قررت نفيسو إعطاء فرصة لهذه العلاقة، واتضح فيما بعد أنها كانت "فرصتها الذهبية" والتي لم تكتشف قيمتها الحقيقية إلا لاحقا.

كان عبد الباسط شغوفا بالكتب تماما مثل نفيسة، و صارت تلك الأوراق محور أحاديثهما الليلية الحالمة، قصص الحب والروايات وعالم القلم وحتى اللغة الانجليزية جمعت بينهما ووثقت علاقتهما بشكل شاعري أشبه بقصص الهيام من ألف ليلة وليلة.

وقعت نفيسة في الحب أخيرا، و كيف لها أن لا تقع في حب هذا الرجل ؟

رجل كهذا لن تهديك الحياة مثله مرتين، لا طيب للعيش بلاه بعد الآن، هكذا قالت نفيسة في صميم نفسها ذات يوم.

قرر الثنائي الزواج أخيرا تتويجا لتفاهم منقطع النظير وحب باتت ملامحه تلوح في الأفق، وببساطة أنثى وجدت الرجل الذي رأت فيه ما كانت تريد، من احتواء، اهتمام وحب، الكثير من الحب.

الحب الذي جعل من نفيسة شخصا جديدا أفضل من نسخته القديمة، الحب الذي يحيي المرء وكأنه وُلد من جديد، ويبعث فيه روحا أخرى أكثر تسامحا واهتماما وحبا.

لمست نفيسة في تحضيرات حفل الزفاف تعبا حلو المذاق، بين الجري في كل الاتجاهات، وبين اقتناء فستان من هنا و خياطة آخر من هناك، كيف لا و

ستزف حسنائنا أجمل عروس للرجل الذي اختاره قلبها سيدا له ولا سلطان أخر عليه بعد الآن.

وبينما كانت نفيسة منهمكة في أجواء التحضيرات، تحسست في أحد الأيام

وجود جسم غريب في ثديها لم يكن موجودا من قبل، وقد أخبرت عبد الباسط بذلك. روت لي كيف قام بتنبيهها بصرامة مؤكدا لها أن هذه الأمور جدية لا مزاح فيها بينما راح يصر عليها كي تزور طبيبا، ليفاجأها سرطان الثدي بزيارته.

وهكذا هي الأقدار، تختار مواعيدها بعناية، كنوع من الاختبارات الجدية لأقرب الناس على قلوبنا، بعضنا قد يستسلم عند أول منعطف، والبعض قد يفاجئنا صامدا قويا في وجه العاصفة، وكان عبد الباسط أقوى من العاصفة نفسها.

لم يكن حزن نفيسة الحقيقي بسبب اكتشافها للمرض، بقدر ما كان تفكيرها كله حول ما سيشعر به عبد الباسط حال معرفته، لقد كان يحلم بالزواج منها بعد أشهر وهي في كامل صحتها وعافيتها، "من المؤكد أنه سيتراجع بعد كل هذه الظروف التي تحدث، الحمل ثقيل، ثقيل جدا، أستشعر من مكاني هذا أن الرحلة ستكون طويلة"

قالت لي ليلتها بالحرف الواحد:

- دخلت عائلتي في حالة هيستيرية من الصدمة، لقد كنت الوحيدة التي بقيت في كامل قواها العقلية. تساءلت، ما هذا الذي يدعى سرطانا و يرعب جميع من حولي ؟ لم أكن خائفة ولا حتى تحت وقع الصدمة، لقد كنت تحت وقع القوة التي منحني إياها حب عبد الباسط، حبيبي الذي حلم ببيت يجمعنا وشعرت ليلتها أنه هدم على رؤوسنا قبل أن ندخله.

في المساء، طلبت عائلة عبد الباسط إلى منزلنا، تكلمت معهم صراحة حول حقيقة مرضي بما أنني لم أستطع مواجهته شخصيا بذلك، لا طاقة لي لتحمل نظرة شفقة واحدة منه، ستوجعني أكثر مما أوجعني حلول هذا المرض علي ضيفا بمراحل، كان لوقع جملة "أنني مصابة بسرطان الثدي" صادما عليهم جميعا، وأردفت بعد دقائق بأن من حق ابنهم التخلي عني من الآن ما دمنا "على البر".

ويبقى الرجل الحقيقي حين لا يبقى أحد، وقد بقي عبد الباسط.

و بينما كانت نفيسة تقص علي تفاصيل الحكاية التي غيرت مجرى حياتها، لاحظت تغير نبرة صوتها في كل مرة كانت تقول فيها "عبد الباسط" أو تتحدث فيها عنه ولو حتى بضمير "هو"، وكأنه الملجئ الأمن لها، لأوجاعها ولندوبها التي لا تكشفها أمام أحد سواه.

اتجهت نفيسة إلى تونس للعلاج، وانتهج الأطباء لحالتها برتوكولا صحيا كانت أولى خطواته قد تستدعي اللجوء للتدخل الجراحي للحد من انتشار المرض وتوسعه، وبمعنى أصح: الاستئصال.

تعتبر عملية استئصال الثدي كاملا أو استئصال الورم السرطاني فقط أمرا يحدده الأطباء وحدهم، وهذا كان أكبر ما تخشاه نفيسة، كانت تظن أنها ستصبح ناقصة على حد قولها، لم تكن تعلم أنها كاملة بذاتها، بقلبها وشجاعتها، وبعبد الباسط.

دعمه لها كان أقوى من كل شيء، ا حتى صار من الهين عليها مواجهة بؤس هذا العالم وأمراضه، غير أبهة له ولما سيترتب عليه من نتائج، المهم أنها وعبد الباسط سويا مهما اختلفت الوجهة، لكن فرحتها في الليلة التي قرر فيها الأطباء عدم اللجوء لاستئصال الثدي كاملا كانت غامرة جدا، شعرت بها من على سماعة الهاتف وكأنها قد سمعت القرار لحظتها.

بعد أيام، خضعت نفيسة لعملية لاستئصال الورم، و بدأت بعدها رحلتها مع العلاج الكيميائي، ورغم ثقل العلاج عليها، إلا أنها ظلت صامدة في مواجهته وبابتسامة.

-لقد ارتديت أجمل ملابسي و"أشيكها" طوال فترة ترددي على جلسات العلاج، أحيانا كنت أنسى تماما ما الذي يحدث من حولي داخل القاعة نتيجة انشغالي بالقراءة أو بأي شيء آخر يمنعني من التفكير في كل الأشياء السيئة التي تتبادر على ذهن مرضى السرطان في تلك اللحظات، و أحيانا أخرى كنت أجدني مستغربة من رفاقي الآخرين الذين يشاركونني العلاج في نفس الغرفة، واحد يتقيأ وآخر مفزوع، لطالما صدقت بأن الأمر مجرد حرب نفسية، و آن الأوان كي يقتنع هذا العالم أن السرطان لم يعد مرضا قاتلا و بات من الممكن علاجه ومتابعته وحتى التعايش معه، وكما يقول المثل: "واحد ما يموت ناقص عُمر".

وفي كل مرة كانت نفيسة تحكي لي عن جزء من مغامرتها في مواجهة السرطان، أذهل من قدرتها الهائلة على استصغاره، حتى استخلصت في النهاية أن قوتها الكامنة مستمدة منه، من عبد الباسط.

لكل واحد منا مصدر ما لقوته، ينبع منه إحساسه الكبير بالعظمة، وقدرة رهيبة على مواجهة كل شيء على هذا الكوكب، طاقة غريبة تحملها أنفسنا البشرية تمكننا من استسهال المستحيل رغم صعوبته، كل هذا نابع من مكان ما نستمد منه قدرتنا الهائلة على الوقوف في الواجهة، وعلى حافة الهاوية، بثبات.

وبعد كل جلسة للعلاج، كانت نفيسة تخرج مستغلة فترة بقاءها في تونس للنزه، وأحيانا للتسوق، وكأنها بتجاهلها لمرضها قد كسرت كبريائه.

أخبرتني مرة أنها قصدت سوقا شعبيا لتشتري"دربوكة" تطبل لها النسوة بها في حفل زفافها، قصصها كانت فعلا ضربا من الجنون، أي امرأة هذه التي تخطط لزواجها وهي على فراش المرض ؟ نفيسة فعلت .

وبطريقة ما، شعرت حتى أنها سحرية، شفيت نفيسة بعد أشهر، وبالكامل.

صور زفافها كانت مبهجة جدا، ظهرت فيها نفيسة في قمة الجمال والحب، بملحفة سكان مدينة "تقرت" الأصيلة وملامح صحراوية تسحر القلوب أطلت أجمل عروس على هذه الأرض، وأقواهم.

أي حب هذا الذي يجعلنا صامدين في وجه الرياح العاتية؟ أي احتواء هذا الذي يزيل انقباض صدورنا ويرمم هشاشة أرواحنا بعد انكسارها؟ ومن هذا الذي نسلم له أوجاعنا ونعري أمامه عن ندوبنا دون ستارة؟

رفقاء أحزاننا هم أولى الناس بحبنا وولائنا، من يبقى معنا، حين لا يبقى أحد، هو أولى الناس بمشاعرنا، ومن يحتوينا يستحق منا كل شيء.

الأن وبعد سنتين، نفيسة تجاوزت كل تلك الأيام بحلوها ومرها وقد أصبح بالنسبة لها من الماضي الغابر الذي جعلها أقوى مما كانت عليه.

قالت لي مرة: "المرض يقوي المرء أثناء محاولة قتله، والله يعوض".

وسيعوضك والله ويجبرك وكأنك لم تكسر قط!

ومنذ أن تعرفت على هذه الإنسانة، وأنا أشعر أنها امرأة ملهمة إلى حد كبير، وتأكدت بعد مرض أمي أن نفيسة هي ملهمتي الحقيقية بلا شك.

عصفت بي قصة نفيسة وأنا أجلس وحيدة على سرير أمي الفارغ، أطالع النافدة في ضجر، راقبناها أنا وأمي طوال الأسبوع الماضي وأطعمنا الحمام سويا كل صباح، لم يزرني هو الأخر اليوم طالبا طعامه، يبدو أنه قد شعر بغياب أمي فقرر تأجيل زياراته إلى حين عودتها.

مرت ساعة واحدة فقط منذ دخولها غرفة العمليات، شعرت خلالها أن عمرا بأكمله قد مضى. أي وقت هذا الذي يجعلنا ننتظر مروره بسرعة ؟ هل له أن يشعر بكمية الضغط البشعة التي تحيط بنا ونحن في انتظاره ؟

والوقت حقيقة يمر بسرعة، فقط عندما نتوقف عن انتظاره.

لا وقت يمر ولا مُر قد مر، و الساعة يبدو أنها قد توقفت عند التاسعة صباحا ولم تعد تقوى هي الأخرى على الحركة. لا خبر يذكر من غرفة العمليات وهاتفي المزعج لم يتوقف منذ ساعات الصباح الأولى، الجميع يسأل و بإلحاح شديد، وكأنني من سيجري لها العملية لها شخصيا.

أطفأته ورحت أتجول مجددا في الرواق، حتى هو لمسته غريبا وكأن غياب أمي قد أثر على كل شيء. شعرت للحظات أن صبري سينفذ قبل موعد خروجها من غرفة العمليات، أخبروني أن العملية لن تستغرق أقل من ثمانية ساعات، أي أنني لن أرى أمي قبل الخامسة مساءا.

الثانية عشر منتصف النهار، لن تخرج أمي قبل خمسة ساعات والقلق بدأ ينهشني من الداخل، معدتي تؤلمني والجو يضغط علي بشكل رهيب لم أعهده يوما، سعاد وعزيزة مستلقيتان على أسرتهما بينما تجلس الحاجة عند النافذة تطالع الزوار كعادتها، في الغرفة الأخرى وجدت الخالة ليندة تقرأ ما تيسر لها من القران وناريمان المسكينة نائمة في هدوء.

-الصبر يا ابنتي وفقط.

قالتها لي بابتسامة دافئة بعثت في روحي شيئا من الطمأنينة.

لم أجد أي مهرب لي سوى إلى الكتابة، ككل مرة. دخلت لأكتب أي شيء في صفحتي على الفايسبوك، وقبل أن أهرع في توثيق مشاعري كتابيا صادفني منشور كتبه أبي قبل ساعتين:

"لحظات ترقب وفرج من الله

شخص مقبل على عملية معقدة بعد لحظات من الآن.

لحظات أصعب من الفراق أو تلقي خبر.

هي مزيج من المشاعر تجثم على القلب لا تفارقك تسيطر على تفكيرك كليا، تحاول جاهدا أن تكون قويا بالصلاة والاستغفار لكن تغلبك العبرات وتجثم راكعا خاضعا لله كي يخلصك من طول الانتظار والترقب باختصار الوقت وتلقي خبر الحقيقة كيفما كانت.

اللهم خلصها من دائها وأرجعها سالمة لأولادها ولحضن العائلة"

لطالما كتب أبي ببراعة، شعرت دوما أنه كان مشروع كاتب أنهت مسيرته الآبار البترولية التي أخذت جل وقته واهتماماه باعتبارها عمله الذي أعطى له أكثر من ثلاثين عاما.

لم أجد شيئا أكتبه بعد السطور التي قرأتها، لا أريد سلسلة من التراجيديا، تنتهي بسيل كبير من الشفقة التي يطلقها أصحاب التعليقات، أشعر بها من وراء شاشتي وأنا أجلس وحيدة، وقررت لحظتها أن أراسل ميس لاتيشا مجددا.

From: Aminadjebbari1999@hotmail.com

To: Bilal2001ny@hotmail.com

Subject: تساؤل وحيرة

مرحبا ميس لاتيشا. إنها أنا مجددا.

أتمنى من قلبي أن تكوني بخير، لم يصلني ردك بعد على رسالتي الأولى لكني قررت مراسلتك مرة أخرى متجاهلة ذلك، فمجرد الكتابة لكي يمنح روحي بعض السلام، وكأنني أتوقع مسبقا ردودك على كل التساؤلات التي تؤرق نومي وتحرم عني الراحة.

أمي الآن في ميدان المعركة التي استعد لها الجميع، بينما وقعت مواجهتها على عاتقها بمفردها، أتساءل كيف كان شعورك في كل مرة كنت تأخذين فيها بلال إلى العلاج الكيميائي وكلك يقين بأنه يتألم؟ كيف كنت تجابهين شعورك بالذنب في كل مرة يتقيؤ فيها أمامك؟

عن نفسي أشعر الآن بأنني مذنبة ومتسرعة وربما قد أكون ارتكبت خطأ فادحا. لقد دفعت بأمي نحو مغامرة لا يحمد عقباها، شجعتها على خطوة شخصيا لا أضمن عواقبها، و صوت ضعيف أخر بداخلي يخبرني أنني دفعتها نحو الطريق الصحيح، كل ما أردته هو أن تشفى أمي لا أن أعرض حياتها للخطر، لكن كما أخبرتك فالصوت ضعيف جدا ويكاد يندثر، أشعر أنه سيدفعني للجنون حتما.

هل حقا أنا مذنبة؟ لم ينتبني هذا الشعور من قبل، ربما لأنني كنت في أمان، أما الآن وبعد أن دفعت سريرها بيدي نحو غرفة العمليات لا أشعر أبدا أنني بخير. ماذا لو حصل لها شيء؟ كيف سأسامح نفسي على فعلتي الشنيعة هذه؟ وكأنني ألعب القمار.

أعلم أن كل ما قلته منذ قليل لا علاقة لكي به، لكني شعرت أنك لربما تودين سماعي فلا أحد يستمع لأحد هنا، الكل منهمك في الحديث دون الاستماع، مثلي تماما، وصفحتي على الفايسبوك لم تعد تقوى على تحمل كل هذا الكلام الثقيل الذي أكتبه لكي الآن.

ربما ستقولين أنني غير سوية عقليا بعد قراءة كل هذه الأفكار المشوشة التي تدور في عقلي، لكن صدقيني كل ما أريده هو أنا أن تستيقظ أمي في المساء وينتهي هذا الكابوس فقط، وأعدك أن أقوم بعدها بمسح رسالة الفضفضة هذه وأضحك على سخافتها أنا وهي سوية وهي تنعتني" بالدراما كوين".

شكرا على هذه المساحة التي تمنحني إياها علبة رسائلك، سأوافيك بأخر المستجدات حول وضعية أمي، وأتمنى من قلبي أن تكون رسالتي القادمة تحمل لكي أخبارا جميلة عني وعن ماما.

شكرا لكي.

لمحت أختي وهي تصعد السلالم في خطوات سريعة متجهة نحوي وقد ظهرت على وجهها علامات البهجة:

-لقد أخرجوا أمي منذ دقائق، رأيتها بأم عيني لكنها فتحت عيناها بصعوبة لرؤيتي هي الأخرى، أظن أنها لم تستيقظ بعد من تأثير البنج.

وكانت لحظة تساوي عمرا بأكمله.

انتهى الكابوس أخيرا.

هرولت مسرعة نحو غرفة الإنعاش، ستبيت فيها أمي حسب الأطباء ليلة واحدة للمراقبة، ليتم بعدها نقلها إلى الغرفة مرة أخرى، تركها الممرضون على سرير التصق بالنافذة الزجاجية بحيث سهل علينا رؤيتها وعن قرب أيضا، و برباطة رأس طبية ولحاف أبيض رأيتها مستلقية وتأثير البنج لا يزال مسيطرا على جسمها، بدت لي متعبة جدا عكس ذلك الوجه الذي ابتسم لي في الصباح القريب، ومنظرها وهي مستلقية بتلك الطريقة أتعب روحي وأنهكها وكأنني كبرت خمسين عاما في ذلك المساء.

أين قوتك يا أمي ؟ أين وقفتك الشامخة تلك ؟ هل بإمكان ورم بستة سنتيميترات أن يجعل من متر و75 سنتيمترا ينام بهذه الطريقة ؟ من أين له كل تلك القدرة التي جعلت منك شخصا يستلقي في استسلام؟

- بصعوبة فائقة، استأصلنا أكبر جزء من الورم، لم نستطع استئصاله كاملا نظرا لموقعه الحساس والمتجذر في أعماق المخ، فقدت الكثير من الدم خلال العملية لكنا سيطرنا على الوضع.

قالت مساعدة الجراح جملها تلك بإنهاك وضجر وكأنها تحفظ ما قالته، و لا تفهم منه شيئا.

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الزوال، عندما أخرجوا أمي ومن العمليات، أي قبل ساعتين تقريبا من الموعد المحدد لذلك، لربما سارت العملية بشكل جيد ما جعلهم يفرغون بسرعة، قلت بداخلي يومها.

السادسة مساءا، أقف أنا وأختي منذ ساعتين أمام نافذة غرفة الإنعاش علنا نلتقط لحظات استيقاظها الأولى لنزف البشرى لوالدي الذي ينتظر خبرا منذ الصباح. لا حركة تذكر، وهدوء تام أقرب إلى السكون.

لمحت بنظرة خاطفة ساحة المستشفى، أفراد عائلتي كلها هنا. واحد يبكي وأخر يصلي وأخرى تحاول إسكات طفلها و هي تحادث أحدهم عبر الهاتف. لقد كانت أمي شخصا يستحق أن يتم انتظاره في الخارج رغم برودة الطقس وتعكر الجو وحتى تأخر الوقت وحلول الظلام، تستحق فعلا.

40 يوما قبل موعد الحسم

سنعود إلى الجامعة أخيرا.

قلت في نفسي، لقد كانت تلك السبعة أشهر التي قضيناها محتجزين بسبب الحجر المنزلي نتيجة انتشار فيروس كورونا كفيلة لتعطيل عجلة حياتنا بطريقة سيئة جدا، و لم يضف لنا البقاء في منازلنا سوى بضع الكيلوغرامات، بينما دخل بعضنا في حالات اكتئاب ، و طغى الكسل طوال تلك المدة على هذا الكوكب، وعودة الحياة إلى مجراها كان أفضل ما قد يحدث لنا بعد سنة 2020 التي أغلقت العالم وحبست الملايين داخل بيوتهم.

سنة 2020 كانت سنة صعبة على العالم أجمع، بداية من فيروس كورونا الذي غزى العالم مطلع شهر جانفي، اصطفت خلاله الطائرات في نظام على مدرجات الهبوط، السفن هي الأخرى رست في الموانئ حتى كاد ينخرها الصدئ، الشوارع خالية على عروشها والمدن أضحت مهجورة لا حركة فيها، لا أحد يذهب إلى العمل والمدارس هي الأخرى قد أوصدت أبوابها والناس جميعا في حالة من الذهول.

لم يسبق لنا قط رؤية مشاهد كهذه سوى في أفلام الخيال العلمي، عندما ينتشر فيروس مجهري بسرعة البرق ويقضي على كل أشكال الحياة في الأرض، كائن لا يرى بالعين المجردة فعل بنا ما لم تفعله أفلام هوليود ولو على سبيل المزاح.

أزمة كورونا التي لم تنتهي حتى تاريخ كتابة هذه الأسطر، أعطتنا درسا عظيما عن أحجامنا الحقيقية، كم أن الإنسان ضعيف أمام قدرة الله، عندما توقفت الحياة على حين غرة، ولم يستطع أحد منا منع ذلك مهما بلغت قوته، وما كان الفيروس إلا جندا من جنود الله سبحانه.

الآن، وبعد حوالي 11 عشرا شهرا منذ بداية الأزمة، بدأت أسارير الفرج تلوح في الأفق، عاد الأطفال لمدارسهم وكل شيء يعود إلى سابق عهده تدريجيا، حتى لو كان ذلك عبر فرض قيود علينا جميعا فإن هذا لا يهم، المهم أن ينتهي الأمر بطريقة ما، ينتهي وفقط.

"لي شاف الموت يستقنع بالحمى" مثل جزائري عميق، بمعنى أن الحمى بمفردها في مواجهة الموت، تمام العافية.

وأخيرا صار بإمكاني الذهاب إلى الجامعة مجددا ولقاء أصدقائي الذين حرمتني الكورونا من رؤيتهم لأشهر.

وفجأة أضحى الجميع يتجول مرتديا كمامات طبية وكأننا في اليابان، في السابق لم يكن يرتديها أحد حتى في مواسم الزكام، و على ما يبدو أننا اكتسبنا ثقافة جيدة حول هذا الأمر قد يعتبر من الجوانب الإيجابية لأزمة كورونا.

رؤية الجميع، بعد كل ذلك الهول الذي رأيناه أو سمعنا عنه خلال هذه الأشهر كان جميلا، جميعنا ظن في لحظة يأس ما، بأننا سنصاب بالفيروس ثم سنقوم بنقل العدوى لعائلاتنا ونموت، حالنا حال العائلات الإيطالية المسكينة التي نهشها الفيروس وبكي معها العالم وهو مكتوف الأيدي.

المحاضرات، النقل الجامعي، الفوضى، جملة "جامعة الجزائر 1" التي نصبت أعلى المكتبة بحيث يراها سيارات الطريق السريع بوضوح، حتى ساحة كلية الحقوق بدت لي ساحرة، كل تفاصيل حياتنا السابقة ببساطتها واكتظاظها كانت جميلة ولم نشعر بقيمتها الحقيقية إلا بعد أن فقدناها.

في أخر مقعد بحافلة النقل الجامعي، جلست بمفردي ممسكة هاتفي و أنا أقرأ رواية لم أنهها منذ أكثر شهر لكثرة تفاصيلها المنهكة، "شيفرة بلال" للدكتور

أحمد خيري العمري، رواية مؤثرة عن مكافح سرطان أمريكي صغير اكتشف طريق الله قبل أن ينتقل إلى جواره، قرأت طوال الرحلة صفحات سخية بالمشاعر بعد أن اكتشفت والدة الفتى أن مرض صغيرها لا أمل في شفائه على الإطلاق، أغلقت الهاتف بعد أن مسحت دمعة خفية غدرت بي أمام الملأ رحت بعدها أطالع النافذة في شرود.

مساءا، عدت إلى البيت بنشاط مريب وكأنني لم أقضي جل اليوم في الخارج، بيتنا مزدحم والتحضيرات لخطبة أخي قائمة على قدم وساق.

-لم هذا التأخير يا ابنتي؟ غربت الشمس منذ ساعة، أين بقيت؟

- لقد جاء القطار متأخرا يا أمي ولم أخرج من الجامعة إلا بعد الخامسة مساءا.

لن يقلق عليك أحد أكثر من أمك، وحتى لو فعل، لن يحبك أبدا مثل ما تفعل هي.

وككل ليلة أتجهز فيها للكتابة ولا أفعل، وكأن قلمي ينتظر حدثا جليا قادما سيكتب عنه بحرارة، مثل ما يحدث الآن.

أخبرتني أمي ليلتها أنني سأرافقها إلى موعدها مع الطبيبة صباحا، بعد أن نصحتها جارتنا بفعل ذلك في أسرع وقت.

-أجلي هذا الموعد يا أمي إلى ما بعد الخطبة.

-لا لن أفعل، سأطلب منها أن تمنحني بعض الفيتامينات علني أستطيع مقاومة السفر إلى بيت العروس، أشعر أن لا طاقة لي بالذهاب من الأساس.

أمي التي كانت ترى في السفر متعة لذيذة، أضحت اليوم تراه عبئا وجب التخلص منه بمساعدة الفيتامينات.

-سأعرض عليها غدا نتائج تصوير الرنين المغناطيسي الذي أجريته، من المؤكد أنها ستجد أحد أوعيتي الدموية مسدودا، أعتقد أنه السبب الرئيسي لثقل يدي، ستصف لي دواء وينتهي الأمر.

قالتها بأريحية.

IRM أو التصوير بالرنين المغناطيسي، جهاز يشبه الأنبوب، دائري و يسمح بدخول الجسم داخله، أعتبره في حد ذاته تجربة فريدة وغريبة في نفس الوقت، بحيث يوضع المريض مستلقيا داخل سرير مستطيل لمدة لا تقل عن النصف ساعة يكون فيها بحالة أشبه إلى النوم ويمنع عليه أن يحرك ساكنا إلا بعد انتهاء الفحص.

ومرة أخرى، أخبرتني ماما أن إجراءها لهذه الأشعة لم يكن مخيفا على البتة، وقد مر بسلاسة أدهشت الممرضة التي رافقتها، ومرة أخرى لم أندهش إطلاقا، لقد تعودت على بطولات أمي منذ صغري.

لم تكن أمي يوما ما عادية، لم ألمس خوفها أبدا من المبيت لوحدها في المنزل ولا من أن تسافر بمفردها مهما كانت الوجهة، حتى أصوات الطرق ليلا على الباب لم يكن يخيفها، امرأة شجاعة لا تخشى شيئا سوى خالقها، وربت أطفالها على ذلك .

التاسعة صباحا، في طريقنا إلى موعد أمي وطبيبتها، يصدح الراديو ببعض الأغاني، الأخبار، والبرامج التي نادرا ما يستمع إليها أحد.

كل سكان هذه الأرض يعيش في تحد مستمر مع الحياة، أخذت نظرة خاطفة على النافذة وأنا أتساءل، ترى أين يختبئ تحدي حياتي؟

لم أكن أدري وقتها أنني في طريقي إليه، رفقة أمي.

غرفة استقبال بيضاء، ممرضة تحمل بين يديها كتاب قرآن تتلو آياته في هدوء، و ما هي إلا لحظات قليلة حتى وجدنا أنفسنا بين يدي الطبيبة.

قالت بمرح:

-هذه ليست نفس الفتاة التي اصطحبتها معك في المرة السابقة.

قالت أمي:

-نعم هذه ابنتي الثانية، شقيقتها مشغولة اليوم.

أخذت الطبيبة أوراق فحص التصوير بالرنين المغناطيسي بين يديها، راحت تتفحصه بعينيها بعد أن أنزلت من نظاراتها قليلا، لم يطل الأمر سوى لبضعة ثواني قليلة وقد بدا على وجهها عدم الاندهاش:

.-لن أكذب عليك وسأخبرك صراحة، الصور أظهرت وجود كتلة غريبة في المخ، يبدو أنها كيس.

قالتها بلغة فرنسية سلسة وكأن الأمر عادي ويحدث يوميا، مع كل البشر.

شعرت بأنني رأيت هذا المشهد من قبل، دخلت في نوبة بكاء هستيرية اندهشت منها أمي التي قابلت الأمر بابتسامتها المعهودة.

طلبت مني الطبيبة مغادرة الغرفة على الفور ولم أتردد للحظة في ذلك.

أمي، شعرت أن عمرها يتناقص، تساءلت في سخافة إن كانت ستلحق بعيد الأمهات لهذه السنة، كيف سيكون عيدا بدونها، كيف ستكون حياتي من بعدها، لا مزيد من التوبيخات ولا حتى من الحنان، أين أنا؟ هل فعلا أمي تموت أم أنني أحلم ككل مرة؟

عواصف من الأفكار عصفت بي في دقائق وأنا ابكي بحرقة مريرة بينما وجدت تلك الممرضة المسكينة تربت على كتفي في محاولة منها لتهدئتي دون جدوى، وما هي إلا لحظات والتحق بنا والدي الذي كان يركن سيارته بعيدا عنا، نظر إلي في تساءل شديد:

-ما الذي يحدث ؟ أنت تبكين ؟ أين والدتك ؟

لم أقوى حتى على الكلام بينما أجابت الممرضة في اعتياد:

-لا شيء، تبين أن والدتها تعاني من كيس في الدماغ، إنه أمر شائع جدا والكثير قد شفي منه، لكن يبدو أن ابنتك قد ارتعبت قليلا.

ارتعبت ؟! الأمر أعظم من الرعب بكثير.

لا علاقة للرعب بما كنت أشعر به، كنت أشعر بالغضب الشديد من كل شيء، كيف لأمي أن تمرض ؟ الأمهات لا تمرضن على الإطلاق، بل في المقابل، يقمن بالتخفيف على صغارهن عندما تظهر عليهم أعراض التعب، ويبدو أن قواعد اللعبة قد انقلبت هذه المرة.

خرجت أمي من غرفة الطبيبة بعد حوالي ربع ساعة من الزمان، وقد بدا على وجهها انكسار كانت تحاول إخفائه بابتسامة قوة شاحبة.

نزلنا تلك السلالم الطويلة في صمت، لم يجرؤ أحدن منا على قول كلمة، هل كان أحرى بنا أن نقول أي شيء من الأساس ؟ أمي أنت تموتين ؟ أيامك معدودة؟ ماذا سنفعل بدونك ؟ ترى أين سترسو سفننا بعد غرقك ؟ وهل بإمكان السفن الإبحار دون قبطان ؟ يا قبطانة حياتنا، لربما حان وقت فصل السفن عن بعضها لتصبح قوارب صغيرة تبحر بمفردها وسط الأمواج العاتية، تصارع المياه تارة

وهجوم الأسماك الشرسة تارة أخرى، ربما قد تنجو بالوصول إلى الضفة الأخرى رغم كل ما ستحدثه العاصفة من ضرر وربما تنقلب في عرض البحر وينتهي الأمر.

هل سينتهي الأمر فعلا ؟هكذا وببساطة ؟! مرت أمي يوما من هذه الحياة.

ما إن صعدنا إلى السيارة حتى انفجرت أمي باكية، صوت نحيبها الذي لم أسمعه من قبل كسر في داخلي ما لا يمكن إصلاحه إلى الأبد.

-إنه مجرد كيس! ليس بورم خبيث، لا تقلقي، سيمر كل هذا وسنضحك سويا على هذه الأيام.

قال أبي بقلة حيلة.

وصدفة، وجدنا أنفسنا في مكان قريب من منزل جدتي والدة أمي فطلبت من والدي والعبرات تخنقني (محاولة تخفيف الموقف المهول) أن نمر إلى هناك قليلا، فلبى طلبي في استسلام.

رفضت أمي الصعود بحجة التعب، وطلبت مني أن أرسل خالتي لتسلم عليها هنا أسفل العمارة.

هنا في حي بلوزداد الشعبي المبتهج دوما، ما به اليوم يا ترى ؟ بدا لي المكان شاحبا وكأن روحه قد سحبت منه، حتى السلالم بدت لي طويلة وكئيبة على غير عادتها وقد صعدتها مثقلة بهم عظيم لم أتهيأ له، جاء على حين غرة، كضيف غير مرغوب به عشية الجمعة.

دققت الباب بثقل، فتحت خالتي الباب قائلة:

-أمينة، هل تصدقين بأنني كنت أتحدث عنك منذ قليل ؟.

بقيت أطالعها في شرود، ماذا عساي أقول لها هي الأخرى ؟ أختك تحتضر وهي في الأسفل تنتظرك لتواسيها في محنتها ؟

أي حمل هذا الذي أحمله ؟ يبدو ثقيلا جدا مقارنة بوزني ولا أظن أنني سأخرج من هذا الطريق بنفس الحال الذي دخلته.

-ماما مريضة.... مريضة جدا.

ودخلت في نوبة بكاء أسوء من الأولى.

-أين هي ألان ؟ مع من جئت إلى هنا ؟؟؟

التقطت أنفاسي بصعوبة وقلت:

-في الأسفل تنتظرك داخل السيارة، لقد خرجنا للتو من عند دكتورة الأعصاب التي اكتشفت وجود كيس في دماغها.

نظرت إلى وجه خالتي الذي أصبح أصفر فجأة، أخذت غطاء رأسها بسرعة وخرجت مسرعة بينما ظلت زوجة خالي جالسة بجانبي وهي تقول:

-كل شيء في هذه الدنيا يمشي لحكمة لا يعلم سوى الله وحده، كلنا نسير في قدر لا يد لنا فيه، الصبر، الصبر وفقط.

نزلت من منزل جدتي في حالة مزرية، رؤية المكان أحبطت معنوياتي جدا أمي ليست هنا من الآن.

أسفل العمارة، لمحت والدي يتظاهر بالحديث على الهاتف، تاركا أمي وخالتي داخل السيارة بمفردهما في مرح مصطنع، وقد شعرت لحظتها أن أمي قد أعلنت الحرب مبكرا، حرب أرى خسارتها المحتومة تلوح في الأفق.

وطوال طريق عودتنا إلى المنزل، لم ينطق أحد مرة أخرى، يحاول الجميع بلع عبراته المختنقة مصطنعا ابتسامة زائفة توحي بعدم الحيلة، كسرت حاجز الصمت قائلة:

-أبي، هلا تركتني في البلدية ؟ أريد استخراج بعض الأوراق من أجل استكمال التسجيلات الجامعية.

!و ككل مرة أواجه فيها مشكلة في حياتي، أهرب

تركني والدي في وسط المدينة وحيدة مثلما طلبت، أمشي دون وجهة أو طريق والدمع الغزير يأبى مفارقتي، جلست على قارعة الطريق وأخذت هاتفي ورحت أتساءل:

من ذا الذي سأتصل به الآن وأخبره عما أصابني ؟

-ألو سارة، ماما مريضة.

"حبابي وقت الشدة، وقت الرخى الناس قاع حباب" تذكرت هذه المقولة وأنا أجلس وحيدة قبل أن أتصل بسارة رفيقة روحي التي بكت في الطرف الأخر معي دون أن تواسيني بحرف. و أحيانا نكون فعلا بحاجة لمن يبكي معنا أكثر من حاجتنا لمن يواسينا كذبا، أو شفقة .

قصدت البلدية كي أستخرج شهادة ميلاد، أي شهادة ميلاد سأستخرجها في يوم كهذا ؟ شهادة كآبة أو بطاقة تعاسة كانت لتكون الخيار الأمثل لذلك اليوم.

بين شبابيك البلدية وجدت نفسي أقف في الطابور، حاولت امرأة سرقة دوري فصرخت بها حتى انتبه جميع من في المكان لصوتي، لم أفعل هذا يوما ولكنني يومها فعلتها لامرأة في سن أمي.

حاولت اللحاق بها كي أعتذر لها عما بدر مني لكنها ضاعت مني وسط الحشود و اختفى طيفها سريعا.

أخرجت أوراقي سريعا وعدت أدراجي، ترى ما الذي أفعله هنا في الخارج ؟ ألا يجب علي الآن أن أكون إلى جانب أمي ؟ لم تركتها بمفردها وهي على حافة الهاوية ؟ هل أنا جبانة لدرجة ألا أستطيع النظر في وجهها والصمود أمام دموعي ؟ ربما أنا كذلك لكن الوقت يداهمني، يجب أن أعود إلى المنزل حالا.

أثناء عودتي صادفت تلك السيدة التي صرخت في وجهها داخل البلدية، شعرت بالخجل الشديد منها ومن فعلتي، قلت لها بسرعة: أعتذر، وهربت مسرعة، ككل مرة.

وكأنني في كابوس مزعج، بدا لي المشوار إلى بيتنا طويلا جدا استغرق ألف سنة، فتح لي والدي الباب في هدوء، الصمت يعم المكان وأمي نائمة ويبدو أنا أخي وأختي لم يعودا بعد، بأي وجه سأخبرهما عن ما حصل ؟ ربما سيلومانني لأنني أخذتها بنفسي نحو الحقيقة ؟ ربنا سقتها بيدي نحو قدرها المحتوم ؟ حتما سأصاب بالجنون قبل حلول المساء.

في الغد، كان بيتنا يعج عن آخره، وقد اجتمع أفراد عائلتي تحضيرا لحفل الخطوبة، وكأن الكابوس الذي عشته البارحة كان من محض خيالي فقط، لم أملك حتى الحق في نقاش همسي مع ابنة خالي حول ما حدث معنا بالأمس من رعب هز كياني وجعلني أسير في الشوارع كالمجانين، صوت في داخلي أخبرني أن الجميع يتظاهر بعدم خطورة الوضع بينما يرتجف داخلهم، وبشدة.

الكل يركض هنا وهناك ولا أحد يقوى على النظر في عيني أمي، ربما ستفضحه دموعه ويفسد بهجة المناسبة، يا للمفارقة العجيبة

"فارح وحزين إلى يوم الدين" مثل جزائري اختصر كل شيء.

نصبت مائدة العشاء مبكراعلى شرف كل الحضور، وجلست أمي في مقدمتها وشكرت الجميع على حضورهم، وكأننا نتجرع سما، لا طعم لكل ما كان موضوعا في الأطباق ولكننا تظاهرنا بالضحك طوال الجلسة متناسين ما حدث حتى كدنا نصدق ذلك فعلا ليلتها.

في الصباح الباكر، استيقظ الجميع في جلبة، المدينة بعيدة والطريق طويلة ووجب أن يصلوا هناك قبل الظهيرة، بدا وجه أمي متعبا ومنهكا جدا، سمعت دعائها فجرا وهي تقول:" يا رب قدرني على هذه الرحلة، أنت أعلم بي وبحالي"، لم تكن بخير أبدا لكنها وككل من هنا تظاهرت بأنها كذلك، لست أدري متى ستنتهي هذه الحفلة التنكرية لنسقط هذه الأقنعة الثقيلة من على وجوهنا، كان أحرى بنا في وضع كهذا أن نجلس جماعة ونبكي بالدور.

غادر الجميع في سيارتين منفصلتين، أمي وأبي وأخي رفقة أختي في سيارتنا، خالي وزوجته وخالتي في سيارة أخرى، بينما بقيت أن وابنة خالي لوحدنا رفقة بناتها، طُلب منا تحضير عشاء لذيذ يجدونه لدى عودتهم مساءا، لكننا عدنا إلى النوم فور خروجهم فالوقت كان مبكرا جدا ولم نستيقظ إلا بعد التاسعة، وكأن هما انزاح عن صدري، انشرح خاطري فجأة حتى وصل بي الأمر لتهور ندمت على ارتكابه أشد الندم.

و بما أننا بقينا بمفردنا، تسنت لي الفرصة أخيرا لمناقشة ابنة خالي حول مرض أمي، عبرت لي عن ارتياحها من الموضوع وحكت لي عن قريبتها التي أجرت عملية مشابهة وهي الآن بصحة جيدة ولا تشكو من شيء، حاولنا فك شيفرة صورة الرنين المغناطيسي لكن كل ما كنا نراه هو كتلة كبيرة تغطي أغلبية المخ فقررنا اللجوء لصديقتها ربما تنفعنا بمعلومة تنير بصيرتنا.

أرسلت لها قريبتي صور الرنين وانتظرنا ردها لدقائق، وما إن رن هاتفها حتى ردت بسرعة، في أول المكالمة وجدتها تتحدث بجمل مفهومة وطبيعية حتى سحب الدم من وجهها فجأة، وكأنها رأت شبحا يقف أمامها، أخذت هاتفها وتظاهرت بالمشي بعيدا حتى انسحبت نحو الغرفة الأخرى.

بهدوء غريب، أمسكت صور الرنين المغناطيسي بين يدي وقرأت أول صفحة، آخر فقرة كانت عبارة عن الخلاصة كتب فيها بلغة فرنسية: TUMEUR GLIOME

لا معنى للهروب من هذه الحقيقة بعد الآن، إنه سرطان فتاك في الدماغ.

لم أبكي بذلك البؤس في حياتي، لطالما شاهدت كوابيس مخيفة تحبس أنفاسي، لكن كابوس ذلك اليوم كان حقيقا لا مفر منه على الإطلاق.

مرت الساعات ثقيلة بعد الظهيرة ولم أتذوق لقمة منذ الأمس، كنت أشعر بدوار شديد لكنني تجاهلت الأمر بشرب الماء.

أجلس في الغرفة وبين يدي صورة الرنين المغناطيسي، أبكي حتى تنتهي رغبتي في ذلك ثم أعيد النظر في الصورة فتعود تلك الرغبة مرة أخرى وكأنني أجلد ذاتي بطريقة ما، لا أريد التوقف عن البكاء مادمت أريد ذلك، كنت أبحث عن طريقة لأرتاح، وكان البكاء فكرة سديدة.

مرت الساعات ثقيلة، ابنة خالي تجلس بمحاذاتي في شرود وبناتها يطالعني بنظرة شفقة أبغضها، رن الهاتف مجددا، رنة هاتف قريبتي صارت تخيفني، تلك الموسيقى لم تجلب لي سوى الأخبار السيئة، سمعت صوت والدتها على الجهة الأخرى تقول:

-جهزوا لنا القهوة، لقد أحضرنا الحلوى معنا، حورية سعيدة لا تفسدوا فرحتها بالبكاء أرجوكم، لا أظن أنها تعلم شيئا عن الحقيقة .

وحتى التعبير عن الدمار الذي بداخلنا صار ممنوعا.

لملمت أطرافي وقمت من السرير، مررت بالمرأة وصدمت لمنظري وكأنني أرى نفسي لأول مرة، كان وجهي مليئا بالندوب والخطوط الحمراء التي لم أرها في حياتي كلها، ويفعل الحزن بالإنسان أكثر من ذلك، وكأن جسمك يعلن مساندته لك بأي طريقة كانت، وعلى العلن.

"البنت الشلبية

عيونا لوزية

بحبك من قلبي يا قلبي

إنت عينايا

بحبك من قلبي يا قلبي

إنت عينايا"

السابعة مساء، تشاهد أمي مسلسلها "عروس بيروت" في هدوء وكأنها تعيش حياة عادية لا سرطان فيه.

تعزف" الست ليلى " لأولادها وزوجاتهم على البيانو، يردد خلفها الجميع:

"حد القناطر

محبوبي ناطر

كسر الخواطر

يا ولفي ما هان عليا"

!المجد للفيروزيين أينما حلو

إنهم يجتمعون حول والدتهم لتناول الطعام مجددا، نظرات الحب تعلو عيونهم رغم كل الخلافات والظروف، هكذا علقت أمي على المشهد بتأثر.

"وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ
وَبَيني وَبَينَ العالَمَينَ خَرابُ
إِذا نِلتُ مِنكَ الوُدَّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ
وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابِ"
-أبوفراس الحمداني.

السادسة صباحا، ليلة عصيبة قضيتها متجولة بين أروقة الإنعاش المخيفة، رافقتني فيها يمينة تارة و الخالة دليلة تارة أخرى، أوصتني أمي ألا أزورها بمفردي هناك ليلا فالمكان مرعب جدا، تفقدتها ثلاث مرات في تلك الليلة، أنام بين المرة والأخرى بعمق وأستيقظ بمنبه ضبطته بعناية كي لا يفوتني موعدي، تفقدتها عند التاسعة ليلا وقد بدأت بالاستيقاظ من تأثير البنج و تحركت أطرافها قليلا، عدت أدراجي واستلقيت في سرير أمي منهكة وكأنني خارجة لتوي من غزوة، يمينة مستلقية هي الأخرى في تعب، وفي سرير إيمان سابقا استلقت الخالة دليلة، المسكينة وجدت مكانا لها بدل افتراشها الأرضية مثلما كانت تفعل في كل ليلة.

في تمام الثانية عشر بعد منتصف الليل، رافقتني الخالة دليلة إلى العناية المركزة حيث ترقد أمي، ببلاط غير ثابت على الأرضية يصدر ضجيجا مخيفا عند المشي عليه، وأصوات أجهزة الإنعاش والتنفس يبعث الرعب في روح الإنسان، لست أدري كيف استطعت الصمود ليلتها وأنا التي كنت أخشى الظلام و"نخاف من خيالي" مثلما كانت تقول ماما، وجدتها وقد استيقظت بالكامل وبدا أنها تطالع المكان في استغراب، ارتميت فوقها بشدة وأنا أردد:

-الحمد لله، الحمد لله.

رمقني الممرض بنظرة محذرة فابتعدت عنها سريعا، أمسكت يدي بشدة دون أن تنطق بحرف واحد و قد بدا التعب عليها شديدا لدرجة أنها لم تقدر حتى شرب الماء الذي أحضرته لها، أخبرني الممرض أن الأمر عادي بسبب صعوبة العملية التي أجرتها وبأن المحاليل تقوم بتغذيتها على كل حال.

كان ذلك الممرض مخيفا، بوجه شاحب ويدين يميل لونها إلى الأبيض نتيجة ارتدائه الدائم للقفازات، بصوت غير مسموع وخطوات ثقيلة، لقد كانت رؤيته بعد الظهيرة أمرا مرعبا، ما بالك و مجالسته فجرا.

الثالثة صباحا، كانت أخر مرة أتفقد أمي ا فيها، يمينة تعبت هي الأخرى من الركض في الأروقة إلى جانبي وقد آن لها أن تستريح قليلا، دخلت لأمي وقد سيطر علي النعاس بشدة، لم أنم منذ ليلتين، رأيت في وجهها علامات الارتياح، ربت على كتفها برفق فاستيقظت بسهولة، قلت ومزيج غريب من المشاعر يجثم على صدري:

-ماما، هل ترينني؟ أنت علمين من أنا أليس كذلك ؟

أمسكت يدي بشدة كجواب منها على سؤالي، شعرت أنها تستهزئ به وكأنها تقول، كيف لا أتعرف على صغيرتي بعد كل هذا العمر ؟

-ماما أنت بخير الحمد لله، الطبيب طمأننا على حالتك، لا تقلقي.

ظلت تطالعني في هدوء وقلة حيلة ثم أكملت:

-ماما هل لي بالذهاب ؟ يمينة تعبت وهي بحاجة إلى النوم ولن أتمكن من العودة حتى الصباح، هل أذهب ؟

لوحت لي بيدها كجواب منها كي أذهب.

ترجلت إلى الغرفة وقررت أن أعود إلى أمي لتفقدها بعد ساعة ونصف بمفردي، دون أن ترافقني الخالة دليلة أو يمينة فالمسكينتان قد تعبتا من ذلك لكنني ومن شدة التعب نسيت

!ضبط المنبه

غلبني النوم بشدة ولم استيقظ إلا على الساعة السادسة صباحا، وبفزع شديد ركضت نحو العناية المركزة لأتفقد أمي فوجدتها في مكانها ساكنة وبدا أنها مستسلمة للنوم.

أخبرني الممرض المخيف أنها لم تنم طوال الليل وقد تنام اليوم حتى الظهيرة، صدقته وعدت أدراجي.

في الرواق كان الجميع يتهيأ لمغادرة سعاد نحو غرفة العمليات، هي الأخرى ستخوض اليوم حربا بمفردها، وينتظرها في الخارج حال عودتها، ثمانية أطفال يعيشون في ظروف مزرية وكأنهم في العصر الحجري.

طلبت مني في أيامنا الأولى سويا، أن أحاول إيصال قصتها لأحد البرامج التليفزيونية لعلها أن تجد من المحسنين خيرا لم تجده في أقرب الناس.

تعيش سعاد رفقة أطفالها في بيت قصديري لا كهرباء فيه ولا غاز، أطفالها لا يزاولون الدراسة ولم يتسنى لهم أن يحظوا بختان حتى، حياة مريرة زادها المرض مرارة وبؤسا.

ورغم كل هذا، فإن سعاد امتلكت روحا غنية لا يشوبها مرض أو فقر أو إعياء، روح تتمنى وتبني أحلاما كبيرة كل ليلة، والأرواح التي تحلم لا تشيخ ولو بلغت مئة عام.

الجنون سيد هذه القصص، أن يتحدى المرء حياة في مهب الريح ، على بعد أمتار قليلة من موعد حاسم، إما استمرار أو نهاية.

بخطوات مثقلة، شعر أصلع و أعين باكية استلقت سعاد على السرير المتحرك في استسلام، الجميع هنا حزين اليوم عليها، يتألم ويتضرع لله عز وجل بأن يرجعها سالمة معافاة إلى أحضان عائلتها "لا أذاق الله طعم الفقد لأي أحد" تردد الخالة دليلة وتنظر إلى والدتها التي لم يحدد مصيرها هي الأخرى بعد.

أية حروب هذه التي نخوضها مُكرهين، لا رغبة لنا فيها، لا طاقة لنا لحمل الأسلحة وتوجيهها صوب العدو، وأي عدو ؟ عدو داخلي ينهشنا ولا يلبث حتى ينهي مسارنا ويردينا قتلى، لا أرواح فينا.

إن أعظم أعدائنا هم من أولئك الذين يسكنون بداخلنا ويتغلغلون في عروقنا، أفكارنا الملوثة التي تعشش على قلوبنا وعقولنا، تفسد نياتنا وتعكر صفو حياتنا، تلك الحرب الداخلية التي نعيشها مع أعضائنا، سن مكسور وضرس يحرم علينا النوم، آلام الرأس بعد يوم طويل وشعور بالدوران يتلو نومة عميقة، كل هذه الحروب مع أجسامنا وأعضائنا الأعداء ما هي إلا حرب يومية لا يعلم عنها الآخرون شيء، حرب من أجل البقاء، يقولون "الصحة عدوة مولاها" و مولاها أي صاحبها، إنها مهاجمة للقلعة من الداخل، وتعتبر خيانة، عظمى..

جاءت ابنة خالتي في الصباح الباكر لمواساتي والرفع من معنوياتي بحكم خبرتها في المجال الطبي كدكتورة صيدلانية، كانت تعي أن ليلة واحدة في أروقة الإنعاش تعادل المبيت بمنزل مهجور مسكون بالأشباح على جزيرة استوائية، جلسنا في حديقة المستشفى وثرثرنا قليلا حول أشياء سخيفة لا معنى لها، المهم أن يمر الوقت ويتسنى لي اصطحابها لرؤية أمي.

في العناية المركزة وجدنا سريرها خاويا، شعرت بسعادة غامرة وأنا أقول بثقة:

-يبدو أنها استيقظت بالكامل، و لا بد أنهم قد قاموا بنقلها إلا غرفتها منذ قليل.

عدنا أدراجنا مبتسمين وكأن النهار قد طلع لتوه، فجأة وجدت باب المصعد على يميننا يفتح وقد بدا أن هنالك مريض ما ينام عليه بعمق، سمعت الممرضين وهم يتهامسون فيما بينهم:

-لقد دخلت في غيبوبة منذ الصباح.

نظرت إلى ذلك السرير في اهتمام، أعرف طريقة الاستلقاء تلك ومدة القدمين جيدا، حتى الرائحة الدافئة التي غطت عليها روائح المستشفى كنت أعرفها، لقد كانت أمي، ولا أحد غيرها، وشعرت لحظتها أن الظلام قد حل فجأة، وبلا أية مقدمات.

عندما كنت صغيرة، كنت أعتقد أن الأمهات لا تمرض ولا تتعب، نحن الأطفال فقط من يحق لنا ذلك، أن ترتفع حرارتنا ونتغيب عن المدرسة ويتم الاعتناء بنا في المنزل، كبرت واتضح أن الأمهات يمرضن ويتعبن أيضا، وأحيانا يدخلن في غيبوبة.

التاسعة صباحا، جاءت أختي محملة بكم هائل من الأطعمة لكلينا، ظنا منها أن أمي سيتسنى لها أن تتناول شيئا بعد أن عادت إلى غرفتها بعيدا عن العناية المخيفة. لم أتفوه بكلمة واحدة وأنا أراها تتجه صوبي مبتسمة، أقف عند باب الغرفة رقم خمسة في جمود، أظن أنها كانت تنتظر مني أن أفتح لها الباب وأشير بيدي إلى أمي التي استيقظت وتقبع بالداخل في سلام.

لم يتبقى لي طاقة للكلام حتى، اكتفيت بالبكاء بينما ركضت أختي نحو غرفة الإنعاش لتتلقى خبرا كان وقعه عليها كالصاعقة، أمي دخلت في غيبوبة منذ الصباح الباكر، ويبدو أنني لم أتفطن لذلك إلا في وقت متأخر.

شعور الذنب ذاك كاد يقتلني، كيف لي أن أنام في ليلة كهذه؟ لم يكن هذا ضمن الخطة، كان يجب أن أبقى إلى جانبها، لربما تفطنت للأمر وصرخت بالممرض كي يفعل شيء، هو الذي تركها حتى مناوبة الصباح ليكتشفوا ذلك.

أنا من أحضرها إلى هنا بنفسي، كنت أول المساندين لها في حربها ضد السرطان، مهما تعددت الوسائل والطرق التي قد تستخدم على أرض المعركة، المهم أن تعود، وهذا كل شيء.

دفعت سريرها نحو مجمع العمليات في الأمس وداخلي يرتجف، يبدو أنني قد أقدمت على خطأ فادح سيغير مجرى حياتنا جميعا، شعرت أنني السبب في كل ما سيحصل بعد الآن .

لم أرغب في حدوث كل هذا، لم أرد منها أن تغامر بحياتها في سبيل آمل ضئيل قد يقتلها أو يدخلها في غيبوبة، كل ما كنت أريده هو أن تشفى، تشفى وفقط.

إعصار جلد الذات الذي انتابني يومها لم أرى مثله في حياتي، فهمت الآن الشعور الحقيقي لكل مدمني المخدرات، كل ما يريده هؤلاء، هو نهاية لذلك الألم ولشعور العجز الذي ينتابهم، وقد كنت في حالة غريبة أقرب لحالتهم، و إلى حد ما، كنت أريد أن ينتهي هذا الألم، وبسرعة.

لم أعد أدري إن كان إرسالي للرسائل سيجدي نفعا بعد الآن، لكنني لا زلت أقاوم و سأراسل أحدهم اليوم بكل تأكيد.

ميس لاتيشا لا جدوى من فتح جراحها، والسيدة ميادة هي الأخرى زارها الزمان وسرق منها فرحتها منذ زمن بعيد، من سأراسل هذه المرة يا ترى ؟ من هذا الذي سيقبلني بحالتي المحطمة هذه ؟ بكل هذه الفوضى التي تعم أرجائي ؟ بهذا الجنون الذي ينخر عقلي ويكاد ينهيني ؟ لا مفر لهذا سوى إلى سجدة.

توضأت بماء بارد لم أشعر ببرودته إلا عندما رأيت يداي وقد تحول لونهما إلى الأزرق، فرشت سجادتي في هدوء دون أن أخبر من في الغرفة عما حدث منذ قليل، لن تنفع إخافتي لهم في شيء، و ربما ستستيقظ أمي بعد ركعتين وينتهي الأمر.

صليت بخشوع غريب بدا لي مصطنعا، كنت أريد أن أصل إلى آخر مرحلة !من صلاتي، الدعاء

كنت أردد أدعية عشوائية دون تفكير، أسرح بين الكلمة والأخرى ثم أعود لأصححها، فجأة رحت أخاطب القبلة وأنا أقول:

"أعلم يالله أنني لم أكن فتاة جيدة بما فيه الكفاية كي يتسنى لي طلب معجزة، لكن أعلم يقينا أنني لم أؤذي أحدا يوما، أنا فقط أؤذي نفسي، أصلي في سهو وأرتدي ما لا يتناسب مع قواعد الإسلام، ورغم ذلك فأنا أصوم كثيرا وأصلي التراويح بانتظام في رمضان، أتصدق بما يتناسب وأموالي و لست مسرفة أبدا، لا أضرب الحيوانات ولا أشتم الناس، أعلم بأنك على دراية بكل ما قلته لكنني وددت أن أقوله وأنا على سجادتي ضعيفة بين يديك لا مفر لي إلا إليك، اللهم لا طاقة لي بكل ما يحدث، فاللهم جبر اللهم قوة".

لست أدري لما طلبت من الله القوة بدل الدعاء لأمي، ربما شعرت أن القدر قد قال كلمته، ولم يتبقى لي سوى طلب القوة لمجابهة ذلك، وشعرت يومها أن الاستجابة كانت فورية.

قمت من سجادتي شخصا آخر غير الذي بدأ صلاته محطما، صوت في داخله يخبره أنه السبب الرئيسي فيكل هذه المهزلة التي تحدث، وأن رميه لنفسه من النافذة سيكون إنقاذا للعالم من قراراته و تشجيعاته التي لم تسبب سوى الهلاك له ولأحبائه.

-كيف هي أمك ؟

سألت يمينة بعد أن أنهت مكالمتها مع ابنتها..

-في غيبوبة تسألك الدعاء.

قفزت من مكانها في فزع، راحت تمشي في الغرفة ذهابا وإيابا وهي تردد: - لا يمكن أن يحدث هذا، لقد كانت تحادثني بالأمس، لا يمكن لها أن تستسلم بعد كل هذا الطريق الذي قطعته، لا يمكنها، لقد وعدتني...

قطع نوبة جنونها دخول أختي الغرفة، راحت تبكي وكأن أمي قد ماتت ومراسم العزاء قد بدأت لتوها، واجتمع سكان الرواق يذرفون الدموع ويبكون المسكينة التي تركوها بالأمس في أحسن حال وهي الآن تصارع الموت في الرواق المجاور.

وعلى عكس كل التوقعات، لم أذرف دمعة واحدة بعد صلاتي، وكل ما فعلته هو أنني ابتعدت عن الضجيج وجلست بمفردي أتأمل هذه الفوضى التي غزت حياتي في شرود.

جلست في الخارج أطالع السماء، هل يا ترى ارتفاعها يسمح بوصول صوتي إلى الله ؟

"ونحن أقرب إليك من حبل الوريد"، جاءني الرد سريعا في عقلي دون أي مجهود.

بقيت أناظر الحمام الذي كان يزور أمي وقد اختار نافذة جديدة ليحط عليها، يبدو أنها علم بغيابها وقرر مقاطعتي إلى حين عودتها. لمحت من بعيد أفرادا من عائلتي وخالاتي يندبون حظهم ويلطمون وجوههم في منظر من الجاهلية، وددت لو كان بإمكاني صب دلو من الماء البارد عليهم، لعلهم يتفطنون للسخافة التي يقومون بها منذ الصباح.

لست أدري كم بقيت بالأسفل بمفردي، ربما مرت ساعة أو ساعتين، شعرت بعدها بالبرد ينخر عظامي فقررت العودة إلى الغرفة، لكنني لذت بالفرار ما إن لمحت يمينة وأختي تبكيان هناك في حزن، و وجدت نفسي في غرفة الخالة ليندة آخر الرواق.

لم تتفوه بحرف واحد، كل ما فعلته أنها فرشت لي بطانية دافئة في السرير الذي بجانبها وطلبت مني الخلود إلى النوم في هدوء، أقفلت باب الغرفة وعمت بعدها السكينة الأرجاء ورحت أنا الأخرى في نوم عميق.

أين أبي ؟ أين أخي ؟ استيقظت مفزوعة بعد أن تذكرت أنني لم أرى أحدهما منذ البارحة، وقفت مباشرة عند النافذة لألمحهما يجلسان سويا دون أن يحدث أحدهما الآخر.

عدت لأستلقي مجددا لكنني وجدت الخالة ليندة تجلس على طرف السرير وتشير لي كي أعدل من جلستي، راحت تقول بجمل يبدو أنها قد أعدتها بعناية:

-أنت في مقام ابنتي ويشهد الله على كلامي، ومنذ أول يوم رأيتك فيه هنا اعتبرتك كذلك، أخبريني، هل تعلمين ما الذي كانت أمك لتفعله لو كانت مكانك الآن؟

أجابت دون أن تترك لي مهلة للتفكير:

-سأجيبك، كانت لتقف وقفة شموخ أشبه بالتي كنت تقفينها في الأيام السابقة، القوة الحقيقية تظهر في هكذا أيام يا ابنتي، أنت الآن في ابتلاء عظيم وأنا أعلم ذلك، لكن صبرك عليه سيكون أعظم من هذا كله، إنني أرى شيء من القوة في عينيك رغم ضعفك وأرى صلابة في روحك رغم هشاشتها، أنت مجبرة على الوقوف يا ابنتي، من أجلك ومن أجل والدتك، كوني هي، وكأنها هنا.

احتضنتها بشدة دون أن أنطق بكلمة واحدة، لقد قالت كل شيء.

ما هي إلا لحظات حتى سمعنا ضجيجا في الرواق، قفزت من مكاني وقلبي يدق بشدة، لم أعد أتوقع سماع أخبارا جيدة بعد الآن، وأحيانا علينا أن نستعد لأسوء الاحتمالات كي لا نصطدم بأحلامنا وهي تقع تحت أقدامنا.

وجدت عزيزة في الرواق، تبكي بحرقة وهي تردد:

-لقد خرجت سعاد من غرفة العمليات وهي مستيقظة، لقد رأيتها بعيني تبكي وتشكر الله على سلامتها.

وما إن رأتني حتى احتضنتني بشدة وهي تقول بثقة:

-أمك ستستيقظ، أنا متأكدة من هذا لا تخافي، إياك أن تقطعي يوما أملك بالله، هو يختار لنا الأفضل دائما، دائما.

حتى في أبشع الظروف التي تبدو لنا عقابا لا ابتلاء، يجب أن نعلم يقينا أن لله حكمة في كل شيء، في المرض والسوء والفقر، ولو علمنا خير هذه الأمور لبكينا خجلا من سوء ظنوننا.

ولأول مرة، ترددت في الذهاب للعناية المركزة، أتقصى أخبار أمي من أختي منذ الصباح لكن دون أن أجرئ على رؤيتها أو حتى الاقتراب منها، أخشى أن يحصل لها شيء ويبقى ذلك آخر مشهد لي معها فيخلد وكأنه الوحيد، هذا بالضبط ما كنت أخشاه.

أخي في حالة مزرية وأختي بحالة مشابهة وأبي مختفي، ربما كان يبكي بمفرده في مكان منعزل، وأنا لا أجرئ على النظر في عيني أي أحد منهم، يبدو أنني لم أتعلم بعد كيف يمكن للمرء أن يفصح عما بداخله دون خجل.

وبخطى خائفة ومترددة قررت إلقاء نظرة على سعاد التي تقبع بجانب أمي، صوت البلاط المتحرك صار يزعجني ويؤذيني نفسيا، إن كانت ميزانية المستشفى لا تكفي لإصلاحه فلنتبرع نحن وننهي وصلة الرعب هذه.

-أمينة ؟

تجمدت في مكاني من شدة الرعب، من أين يأتي هذا الصوت يا ترى، بدا أنه يصدر من مكان ما خلفي، استدرت بحذر شديد لكنني لم أرى أحدا، ربما أصبت بالهلوسة أو أنني على أبواب الجنون، هكذا قلت في نفسي لكن الصوت عاد لمناداتي مجددا، لا بد أن هذا الرواق مسكون لكثرة حالات الوفيات فيه، من المؤكد أنه كذلك، أصوات كثيرة كانت تدور في رأسي حتى شعرت بيد تلمس رجلي برفق وتقول:

-أمينة، أناديك منذ الصباح، أين أنت ؟

لقد كان عبد الله الصغير.

ممسكا بكلتا يديه الصغيرتين بيدي، كان عبد الله شديد الغضب مني لأنني ولحد قوله أتقاعس في زيارته من أجل الاطمئنان عليه وملاعبته، وقد رآني أمام غرفته ليلة الأمس لكنني لم أدخل لإلقاء التحية، كان غضبا بريئا لا مثيل له.

-أين أمك ؟

قالها عبد الله بعد أن أكمل موال العتاب الذي كانت حنجرته تصدح به على مسامعي منذ قليل.

-هي نائمة في الغرفة التي بجانبك، إنها تتعافى شيئا فشيئا.

-أود زيارتها لو سمحتي، هي تحبني وقد أخبرتني بذلك.

-نعم تحبك جدا، لكن عمو الطبيب لن يسمح لك بالدخول إلى هناك فالمكان بارد ويخشى أن يصيبك بالزكام.

لم أجد عذرا سخيفا غير الذي قلته، لكن لقول أن غرفة العناية المركزة باردة جدا كان حقيقيا، أو ربما شعرت ببرودتها لأنني بقيت وحيدة هناك لساعات متأخرة من الليل، أرى أمي تصارع الموت وأنا التي أتخيلها تستيقظ.

بقيت مع عبد الله ووالدته لما يقارب الساعة، حكى لي الصغير فيها عن مدرسته وأصدقائه وعن حبه لي وفرحته في كل مرة أزوره فيها حتى كدت أقضي الليلة إلى جانبه، كنت أماطل كي لا أرى سعاد وأمي المستلقية بجانبها لكن بدا لي الأمر مبتذلا، فقررت الذهاب.

لا صوت يعلو فوق صوت آلات الإنعاش، لمحت من بعيد رجلا يستلقي في سكون تام و يبدو أنه كان ميتا، على يساره عجوز تطالع السقف في استسلام وسرير

آخر لم يتبين لي صاحبه، في الجهة المقابلة كان هناك سرير خاوي ينتظر مريضا ليقتل عائلته قلقا، في الوسط تستلقي سعاد وهي في كامل وعيها تحادث الممرض، وأمي، أمي التي تنام بعمق لم أرى مثله في حياتي.

لم أقوى على الدخول، لوحت بكلتا يدي لسعاد تعبيرا لها عن سعادتي بعودتها، رحت أبكي فرحا لسلامتها وحزنا لما آلت إليه أوضاع أمي، كانت هي الأخرى تبكي وتشير بيدها نحوها وهي تقول:

-ستستيقظ، ستستيقظ.

أمهات الأمهات

استلقيت على سرير إيمان في إعياء، قررت أن أخلد إلى النوم دون أن أشغل رأسي بدوامة أفكار لا نهاية لها وكأن حل هذا الأمر بيدي، وربما لشدة التعب نمت بالفعل.

بلوزداد العاصمة، في زاوية ما بمنزل جدتي، وجدت نفسي جالسة بغرفة الضيوف في يوم العيد، كانت تلك نفس أجواء الأعياد التي لطالما اجتمعنا فيها بالبيت الكبير، قبل أن تغادرنا خالتي التي سُميت تيمنا بها "يمينة" لتلحقها جدتي هي الأخرى بعد أقل من خمسة سنوات، وفي مفارقة عجيبة، وجدت ماني تجلس بمحاذاتي مبتسمة ب "جبتها" المعتادة و"الفولارة" المُوردة على رأسها، بينما أطلت بعض الشعيرات المصبوغة بالحناء في استحياء، كانت تلك هيئة جدتي قبل أن يفتك بها مرض الزهايمر في آخر أيامها.

كانت جدتي تطالعني في سعادة وكأن روحها قد بعثت فيها من جديد وقد سعدت أنا الأخرى لذلك، سألتها في براءة:

-ماني ؟ هل عدتي ؟

أجابتني في تحد:

-لا لم أعد، لكنني الآن بينكم من جديد.

قمت مفزوعة من مكاني بينما حل الفجر في الخارج، أختي لا تزال نائمة رفقة يمينة أيضا، لم أرد إيقاظهم رغم شعوري الشديد بالخوف مما رأيته في

حلمي، لطالما كانت جدتي منبع أمان لكل أحفادها، لكن رؤيتها وبعد كل هذا الوقت وفي هذه الظروف بالتحديد زرع في الشك مما هو قادم.

عاشت جدتي حياة مسالمة إلى أبعد الحدود، لم يسبق لها أن تعاركت مع شخص قط، لا مع جار ولا مع قريب أو حتى مع شقيقاتها، عاشت حياة بأكملها دون أن تحمل أي ذرة كره صغيرة لأحد، عاشت عمرا بسيطة حالها حال قريناتها اللواتي ولدن في عهد الاستعمار الفرنسي، و كانت جدتي "نية".

جدتي فاطمة، رحب بها العالم في عام 1932، من منطقة جبلية بالقبائل، لطالما حكت لنا عن طلاق والدتها وكيف كان له دور في تغيير مسار حياتها بالكامل، عندما رحلت نحو العاصمة وهي لا تتعدى السنتين من عمرها، للتعيش بعدها بينها وبين أخوالها، و تقرر فيما بعد إرسالها لخدمة البيوت وعمرها لم يتعد الثانية عشر، ومنذ صغري، كنت ألاحظ خوفها من المبيت بمفردها عكس أمي، أو من إطفاء كل أنوار البيت ليلا عند الخلود إلى النوم، كانت تطلب منا دوما إبقاء ضوء واحد وترك مكان لها لتفترشه بيننا، كل خوفها كان نابعا من تجارب طفولية سابقة ظل عقلها عالقا بها، لقد تركت جدتي لوحدها لأيام طويلة عندما كانت صاحبة البيت تسافر بعيدا للعمل أو لأي شيء آخر، في قصر فرنسي كبير لا يحرسه سوى كلب ضخم يفترش الحديقة، فما كان منها سوى أن تبقى حبيسة أسوار ذلك المنزل لشدة خوفها منه، لتأتي والدتها آخر الشهر وتقبض مرتبها وتعود أدراجها، تاركة إياها وحيدة من جديد.

تزوجت جدتي من جدي وهي في عمر السابعة عشر، وكانت تخبرنا دوما وهي تقص علينا مسيرة حياتها، بأنها قد تزوجت في سن كبيرة مقارنة بالأخريات من جيلها اللواتي سبقنها إلى ذلك بسنوات، وسارعت بعدها لإنجاب تسعة أطفال علها تتدارك ما فاتها من وقت، ثلاثة ذكور وستة بنات توفي منهم اثنان ذكر وأنثى، بينما عاش الثمانية الآخرون "طيحة ونوضة" مثلما كانت تقول لنا بالحرف الواحد، نظرا

للأوضاع المزرية التي عاشها الجزائريون، بدأ من سياسة التجويع والترهيب إبان ثورة التحرير المجيدة، والتي تعرف جدتي تفاصيلها أكثر ممن عايشوها في الجبل. كانت قصص جدتي عن "الفلاقة" أو المجاهدين الذين فجروا الثورة مثيرة للاهتمام والحيرة، أسألها مرارا من أين لها بكل هذه الحكايات فتخبرني أن السماء وقتها كانت تمطر قصصا، و كانت قصتها المشهورة يوم اقتحم جنود فرنسيون بيتها وراحوا يفتشون كل رقعة فيه حتى صار أشبه بالخراب، ووعدوها بمكافأة قيمة في حال كشفها لهم عن مكان المجاهدين وأي معلومة أخرى عنهم، وبقيت هذه الحادثة حديثها الدائم في كل مرة أزورها فيها حتى بعد إصابتها بمرض النسيان، الزهايمر.

وجاءت حورية سنة 1962 عام الاستقلال وسميت عليه، من الحرية.

أخبرتني جدتي أن أمي في الحقيقة، ولدت قبل الخامس جويلية بيومين أو ثلاثة، لكن فرحة الاستقلال جعلتها تؤجل تسجيلها واستخراج شهادة ميلادها حتى الثالث والعشرين من نفس الشهر، كان انشغال الجزائريين وقتها بالاحتفال يمنعهم من القيام بأي شيء آخر، تخرج جدتي ومن معها منذ الصباح بالحايك يجوبون شوارع العاصمة هتافا بالحرية، وحورية الصغيرة في حضنها تحتفل معهم بما لم تفقه به شيء بعد غير أن حب الجزائر يولد معنا بالفطرة، لا نقاش فيه.

جدتي المحاربة التي ربت الثمانية أطفال دون أب، والتحق بهم الأحفاد لاحقا، يحق لها أن تكرم بذرع الجدات الذهبي، كنوع من التكريم لكل ما قدمته لنا من دروس لا يزال آثرها سار المفعول حتى يومنا هذا، وأكبر دليل على ذلك أنني الآن أكتب لها وعنها.

وبالحديث عن جدي، في الحقيقة، لم أحظى يوما بجد، جدي رحل قبل أن أولد، وجدي الثاني لم ألتقه سوى مرات قلائل في حياتي يسألني فيها: "بنت من نتي ؟" فأعيد على مسامعه ما أحفظ، لكن رغم ذلك فقد كان هناك عمي العربي، العربي

الذي كان عما لأمي وأبي وهو أكبر إخوته (أجدادي)، كنت أناديه عمي وأغار من أحفاده الذين يقولون له "جدي".

كنا نزور منزل عمي العربي باستمرار خلال العطل في قريتنا بسيدي خالد ببسكرة، كان يملك منزلا واسعا بمعمار عربي أصيل لا مثيل له، بأربعة غرف ومطبخ وحمام على الأطراف و"حُوش" كبير تتوسطه شجرة تين كنا نسميها ب"الكرمة"، يعود عمنا العربي بعد صلاة الفجر محملا بالحلوى لي ولإخوتي، يهمس لي في حب: تشبهين أمك، وكان لكلماته وقع كالسحر على طفلة في التاسعة لا جد لها يشبهها بأحد أبنائه وبناته.

كان جدي المزيف يقضي نصف يومه في إصلاح الراديو، والنصف الآخر في الاستماع إليه بينما أجلس أنا بجانبه في انتباه. يقرأ الجرائد والكتب، يجيد الفرنسية ويشرح لي بعض الكلمات بين الفينة والأخرى، يحكي لي عن كفاحه ضد ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية بينما أستمع إليه في اهتمام، محاولة حفظ ما يقول في ذاكرتي الصغيرة.

كان يملك وشما أخضر اللون على يديه المتجعدتين، أسأل أمي في فضول: لم ذا يملك عمي العربي عينين زرقاوتين ونحن لا نفعل ؟

يشبه جدي الأكبر، تقول ماما دون أن تضيف شيئا.

بعد الظهيرة، يختفي عمي العربي في غرفته التي لطالما حلمت بالنوم فيها، يتوسطها سرير خشبي كبير وفراش عريض برائحة عتيقة تشبهه، ونافذة تطل على "الكرمة" وصورة كبيرة تجمعه بماريا زوجته من مكة المكرمة، يحذرني قبل اختفاءه: إياك وقطف التين.

عصرا وبعد الصلاة، نجلس جميعا في ساحة المنزل الكبيرة بينما يجلس عمي العربي تحت شجرته، تقدم له زوجته فنجان قهوة حُلو المذاق، يضيف له سُكرا بعد كل رشفة وهو يردد: مُرة، مُرة.

يعيد تشغيل الراديو مرة أخرى بينما تجالسه ماريا، يتبادلان أحاديث لطيفة بعيدا عن تمثيليات الحُب المبتذل، أحاديث تملؤها المودة، السلام والطمأنينة، كأنهما انفصلا تماما عنا نحن الذين نجلس إلى جانبهم، يتخلل نقاشاتهم بعض القصص التي لم تكن تثير اهتمامي وقتها، كزيادة أسعار الحليب وتأشيرات العمرة وكذا موعد التشريعيات.

"الحاج، وش نديرلك عشا" تسأل ماريا، "برنُوشة" يجيب عمي العربي في إشارة منه لطبق الكسكسي، فتنصرف لتحضيره دون أن تضيف كلمة أخرى.

على العشاء في ساحة المنزل وتحت أضواء خافتة، يتناول الجميع طعامهم مجتمعين على طاولة واحدة، بينما يأكل عمي العربي عشائه وحيدا كعادته على منضدة منفصلة عنا ، أحمل طبقي عنوة وأشاركه الجلسة، يبتسم لي ونكمل طعامنا ليعود بعد ذلك إلى شجرته، حاملا الراديو وفنجان قهوة أخير، أتبعه أنا في استسلام حتى يحين موعد النوم.

لقد تذكرت عمي العربي اليوم، تماما مثلما تذكرت جدتي المليئة بالحياة، تصطحبني معها إلى "مارشي طناش" في "بيلكور"، وسمي كذلك لأنه كان سوقا تغلق أبوابه عند الثانية عشر بعد الزوال، نجوب المحلات واحدا تلو الأخر وتشتري لي ما أريد في النهاية، مظلة وقبعة وشال شتوي، نختم جولتا بسوق الخضار باحثيين عن ربطة "حشيش" تضع بها لمستها الأخيرة على "الشربة" لعشاء الليلة. فور عودتنا تنهمك جدتي في القيام بأعمالها المنزلية كعادتها، من طبخ وتنظيف وكأنها لم تكن في

زحمة الأسواق منذ قليل، بنشاط لا مثيل له بعد أن علقت حجابها خلف الباب وهي تقول لي بابتسامة:

-أري والدتك مظلتك وتلك القبعة.

أركض لأُري أمي المظلة الوردية التي اقتنتها لي جدتي، سأجابه بها مطر هذا الشتاء، تسعد هي الأخرى وتتفحصها بعينيها في هدوء، بينما تطالعني خالتي يمينة التي تجلس في الزاوية بابتسامة.

في الأعراس، يتزين خصر جدتي بمحزمة ذهبية ترقص بها طوال الحفل، لطالما رغبت في امتلاك واحدة مثلها، تهمس في أذني خالتي التي سميت عليها وهي تقول:

-عندما تكبر صغيرتي سترتدي "محزمة" أيضا، لا تقلقي.

-ومتى سأكبر ؟

-عندما تصبحين في طولي.

تقول مبتسمة.

توفيت خالتي يمينة أستاذة الفيزياء العبقرية وأنا في الحادية عشر من عمري، وكانت تلك أول مقابلة حقيقية لي مع حتمية الموت التي يهرب منها الجميع. حزنت عليها جدتي حزنا يقطع القلب ويقسم الظهر، لم تندب حظها ولم تصرخ، لكنها بكت بكاءا مريرا صامتا ، عقلها هو لآخر لم يتقبل رحيلها حتى كادت تفقده، ماني التي تحفظ أسمائنا وتواريخ ميلادنا جميعا صارت تضيع في ملامحنا بعد إصابتها بالزهايمر، الزهايمر الذي فتك بها بعد خمس سنوات من رحيل خالتي.

السابعة صباحا، وجدت نفسي أتجول في الرواق حاملة صحنا من التمر أوزع فيه على المارة طلبا للدعاء، شعرت بإرهاق شديد وكأن الدنيا تدور نحوي وكدت أسقط على الأرض.

في الغرفة، وفي انتظار عودة أختي من العناية المركزة، أجلس في صمت بينما تطالعني يمينة في حزن شديد، لم يطل انتظارنا سوى دقائق حتى أطلت أختي وهي تقول:

-على حالها.

عاتبتني أختي مجددا، و بخطاب شديد اللهجة على خوفي اللامبرر من الذهاب إلى العناية وتركها وحيدة هناك منذ دخول أمي في غيبوبة، وكم هو صعب قول ذلك. غيبوبة تركت خلفها آثارا كتلك التي يخلفها الطوفان.

أطالع النافذة في حذر، يظهر لي الطريق المؤدي إلى ما خلف المستشفى وقد عج بالسيارات الفخمة والمزينة، يبدو أنه حفل زفاف ما. الحياة تجري بسرعة البرق في الخارج وأنا هنا أعد الثواني والدقائق، كم هي كثيرة تلك الأيام التي عشناها براحة وسرور لا فكرة لدينا فيها عما يحدث لأحدهم، بمستشفى ما في انتظار أن يستيقظ أحبائه من غيبوبة.

-عندما تنتهي اختبارات الباكالوريا، سأدخل في غيبوبة.

قلتها لأمي عشية اجتيازي لشهادة البكالوريا، وأنا أنام في حضنها بعد يوم مراجعة طويل استنفذ كل طاقتي في ليلة رمضان.

-نامي الآن ولا تفكري، سأوقظك للسحور مباشرة، صلي الفجر ثم عودي إلى النوم مرة أخرى، لست مطالبة بفعل شيء حتى تنتهي امتحاناتك.

قالت أمي جملتها تلك وهي تمسح على شعري بحنان.

رائحة "قلب اللوز" تغرق المنزل، مع نسمات من ماء الزهر تم رشه على "اللحم لحلو" وقد تم تجهيز كل شيء لاستقبال الشهر الفضيل.

قضيت النصف الأول من رمضان منخرطة في حصص مراجعة طويلة، تبدأ عند التاسعة صباحا ولا تنتهي إلى بعد الثالثة، تكون فيها أمي قد دخلت المطبخ مجهزة بوصفة تحلية جديدة، شاهدتها على اليوتيوب وقررت تجربتها.

-أمينة، هلا كتبت لي مقادير الوصفة في دفتري، أخشى أن أضيع الفيديو وتضيع معه تفاصيله.

تقول أمي وهي تهم بالدخول إلى مملكتها، مملكة المطبخ.

ليلة النصف من رمضان، وقد كنت على وشك خوض غمار سباق البكالوريا بعد تعب سنة كاملة، لشدة حماسي لم أنم ليلتها، وذهبت في الصباح الباكر قاصدة مركز الامتحان، تاركة أمي تدعو لي بكل الدعوات الجميلة التي قد يسمعها المرء وهو مقبل على امتحان مصيري.

خمسة ليالي متتالية أنام فيها سوى لساعات متقطعة لا تتعدى الثلاثة ساعات، لأستيقظ مجددا وأمسك أحد الكتب التي تنام بجانبي منذ مدة، أجد أمي في كل مرة تجلس إلى جانبي أو تحييني وهي تحضر لي أشيء أتناوله كي أستطيع البقاء مستيقظة لأكبر فترة ممكنة.

في آخر ليلة نمت حوالي الرابعة صباحا، استيقظت عند الخامسة وكنت شبه نائمة، أمسكت كتابا ويدي اليسرى ترجف من شدة النعاس، أرى في الوسادة حلما بعيدا عني بحوالي عشر ساعات أو أكثر، وفجأة شعرت بدوار شديد لولى مسكة أمي لسقطت أرضا، تمددت في سريري وسمعت أمي تقول لي في هدوء:

-نامي الآن، أتركي كل شيء، إن كان لكي نصيب في النجاح فستأخذينه سواء نمتي ما تبقى من ساعات أو بقيتي مستيقظة.

نمت فعلا ونجحت في البكالوريا.

كل نصائح أمي مهما بدت غريبة فإنها سديدة لا خسارة فيها، كالمرة التي نصحتني فيها بقص شعري كي يطول، كيف ذلك؟ هل نقصه ونحن أصلا نحسب طوله؟ ما هذا المنطق الغريب، تساءلت في نفسي وأنا ابنة العشر سنوات.

أطلت شمس اليوم الموالي و أمي لم تستيقظ بعد، يبدو أنها متعبة وبحاجة لبعض الراحة، حسب الأطباء، فإنها تنام منذ ليلتين بمخدر، لن تستيقظ منه إلا بعد ثلاثة أيام على الأقل كنوع من الغيبوبة الاصطناعية.

يومها، بُرمجت عملية كل من الحاجة وناريمان بعد يومين، أما يمينة وعزيزة فقد تم تأجيلها للأسبوع المقبل وعاد بذلك موال القلق الذي يغزو الرواق عند الإعلان عن جدول العمليات الأسبوعي.

بالنسبة للحاجة التي كانت تبتسم طوال الوقت حتى ظننت في لحظة ما أنها فاقدة لقدراتها العقلية، كان الأمر سهلا ولا يدعو للذعر إطلاقا فهي مجرد عملية جراحية على الدماغ ستخرج منها سالمة معافاة وقد رأيت هذا في عينيها اللتان كانتا تحدقان بي طوال اليوم في حنان، وكأن جدتي قد بعثت من جديد، كان إيمانها أقوى من كل شي. أما والدة ناريمان فقد كان لها رأي آخر.

اصفر وجه الخالة ليندة فجأة فور إعلان خبر العملية على مسامعها حسب أقوال من شهدوا ذلك، و يبدو أن التنظير بالصبر والتفاؤل سهل جدا مقارنة بتطبيقه على أرض الواقع.

ناريمان المسكينة التي تظن أنها هنا لأمر بسيط جدا سينتهي بتخديرها لأقل من ساعة أو هكذا أخبرتها والدتها، هي التي ستدخل غرفة العمليات لأكثر من ثمانية ساعات ولا أحد منا يعرف كيف سيكون مصيرها.

تمر الساعات ببطئ شديد عندما تكون بانتظار أن يستيقظ أحدهم من الغيبوبة، وكأن الساعة قد توقفت عن العمل وقررت أخذ استراحة بعد كل هذه القرون، العمل الذي لم تجني منه المسكينة سوى سيل من اللعن والشتائم، رغم أنها بريئة من كل هذا، والذنب يقع حقيقة على مرتكبه، لا على ساعة ارتكابه.

لن تكون هناك أي محاولات لإيقاظ أمي اليوم، حسب قول طبيبها الذي اختفى منذ يوم العملية، سمعت أنه حزن لما حصل لها وكأنه وقع لأحد أقربائه، لذلك فاليوم يوم فراغ، فراغ من كل شيء ولا حاجة للقلق، سنوفره للغد أو لليوم الذي يليه.

كانت الظهيرة عندما جلست أنا وأختي بمفردنا في الغرفة، صمت قاتل وكأن الحروف قد انقرضت والكلمات انتحرت هي الأخرى، أمنا في غيبوبة فماذا عسانا نقول في هذه الفاجعة.

-هل تراها ستستيقظ ؟

سألت في حيرة.

-إن شاء الله، سندعو لها كي تفعل.

و هكذا كانت أختي، متفائلة وصبورة، تمنح الجميع الكلمات التي يودون سماعها حتى لو لم تكن مصدقة لما تقول.

أتجول باستمرار في الرواق، أقف للحظات أتأمل النافذة الكبيرة التي جمعتني بسعاد وعزيزة ذات ليلة وتبادلنا القصائد حتى كدنا نُطرد، كانت أمي وقتها تنام براحة في الغرفة، قبل أن نصل إلى ما آلت إليه الأوضاع الآن، أتلصص بنظري نحو غرفة ناريمان فأجدها تمسك كتاب الله في هدوء بينما تُحضر الخالة ليندة وجبة الغداء التي خزنت في العلب البلاستيكية بعناية، دعتني لتناول الطعام معها لكنني رفضت.

-لقد انخفض وزنك بشكل محسوس منذ مجيئك إلى هنا يا ابنتي، تناولي لقمة على الأقل، تعينك على الوقوف، إضرابك عن الطعام لن يفيدك في شيء، الأمر ليس بيدك، على الإطلاق.

-لست في إضراب، كل ما في الأمر أنني لا أشتهي شيئا، أشعر أنني قد تناولت خروفا للتو، حتى أنني أشعر بالخجل أن آكل وأشرب وأمي هناك تصارع من أجل الحياة.

ساد الصمت بيننا ثم قالت في حنان وهي تربت على كتفي:

-المهم أنني هنا وإلى جانبك، في حال قررت العدول عن قرار الإضراب هذا.

في غرفة عزيزة، استلقت سعاد على سريرها بعد أن تم إحضارها إلى هناك، وذلك بعد تحسن حالتها بحيث لم يعد هنالك أي داعي لبقائها في العناية، وبرباطة رأس طبية تشبه التي وضعت على رأس أمي وكرسي متحرك، استقر بجانبها نتيجة عجزها عن المشي جراء العملية، وقد أخبرها الأطباء أيضا أن الأمر لن يستمر طويلا وسينتهي بعد خضوعها لجلسات من العلاج الفيزيائي.

تجلس الحاجة أم دليلة على كرسيها كالعادة تطالع النافذة، ترحب بي في كل مرة أهم بالدخول عليها، تأخذني في حضنها وهي تمسح على رأسي وتهمس بكلمات لا أفهم منها إلا القليل:

-كيف حال والدتك؟

تتساءل المسكينة في حيرة، ظنا منها أن أمي لم تجر أي عملية بعد، وهي الآن في الغرفة المجاورة.

-بخير الحمد لله.

أجيبها بثقة وكأنها فعلا بخير، كيف لي أن أخبرها أن رفيقتها في المرض تلقى مصيرا قد يشابه مصيرها، هي التي تعاني من ورم بنفس مواصفات ورم أمي إضافة إلى مرضها بالسكري وكبر سنها؟

أجلس في مقابلتها وهي تمسك بيدي وتجول بناظريها في أرجاء المكان وكأنها تبحث عن شيء ما:

-أين شقيقتك ؟

-أختي هناك في الغرفة، سأخبرها أنك سألتني عنها بعد قليل.

تبتسم في قلة حلة وهي تعدل من ربطة "الفولارة" التي تتوسط رأسها الصغير المغطى بالشعر الأبيض، يدخل علينا حفيدها الذي يقضي تربصه في المستشفى إلى جانبها فتفتح يديها لتحضنه، أشعر ببرد وأنا أسحب يدي من يدها كي أفسح له المجال ليعانقها، وأنا أتخيل في داخلي لو أن جدتي كانت هنا الآن.

عدت إلى الغرفة مثقلة بحنين إلى زمن كانت فيه جدتي موجودة، أجد يمينة بمفردها فأحضنها في قلة حيلة تشبه التي عند الحاجة، كلنا هنا في هذا المكان عاجزون لا حول لنا ولا قوة، نجلس في هدوء وننتظر المجهول.

تدخل علينا أختي بعلب الطعام وتطلب مني تناول شيء عنوة لكني أرفض ذلك، أشعر أنني أزن حوالي 45 كيلوغرام وأنا التي دخلت هنا بما يقارب الستين

كيلوغراما. تأكل يمينة وتتمدد في فراشها، بينما تقصد أختي العناية بمفردها مجددا، لتعيد علينا بعد عودتها نفس الجملة:

-على حالها.

لا وجود لأي رد على رسائلي منذ دخولي إلى المستشفى، لكنني أأبى الاستسلام، لطالما كان إرسالها بالنسبة لي وقراءتها مرارا وتكرارا هو جواب في حد ذاته، بغض النظر عن ما إذا كانت تصل أصلا.

وجدت نفسي في لحظة ما أمسك هاتفي، وأكتب على صفحتي على الفايسبوك:

جدتي العزيزة

أما بعد

كيف حالك في عليائك الجميل، أعلم بأنك قد تكونين الآن في مكان أفضل بعيدا عن عالمنا المليء بالسوء، لكنني رغم ذلك لا أزال أحمل في قلبي أمنية مستحيلة بعودتك إلينا، لقد تغيرت الكثير من الأشياء بعد رحيلك، لم يعد أحد يهتم لأمر بيتك، قلت فيه الزيارات، ولمات العيد أصبحت من الماضي، لا تقلقي، أنا وأختي لا نزال نتفقد المكان باستمرار رغم كل شيء، اه لو تعلمين ما الذي يصارعه أولادك الآن مع الحياة ومصاعبها، حتى أحفادك لم يسلموا منها، أظن أننا وأخيرا قد أصبحنا كبارا، وبالحديث عن الكبر، أين تلك "المحزمة" الذهبية خاصتي والتي وعدتني بها حال ما أكبر؟ و ها قد كبرت.

لست أدري إن كانت أخبارنا تصلك، لكن يؤسفني أن أعلمك أن ماما مريضة وهي الآن في مكان يقع بين عالمنا وعالمك، أعلم أن الأمر لو عاد لك لحاولت جاهدة أخذها إلى جوارك لكن القرار يعود لها، أخبرنا الطبيب أن تشبثها بالحياة من عدمه هو من سيحدد مصيرها بعد الآن.

أعلم أيضا أنك الوحيدة التي لو كنت هنا لما شعرت بكل هذا الفراغ الرهيب الذي يجتاحني الآن وأنا على أبواب الإنعاش، أنت فقط من كان سيشعر بي وبكل ما يجول في خاطري دون أتفوه بكلمة واحدة.

هناك في الغرفة المجاورة جدة تشبهك جدا، لقد أحببتها بقدر ما أحببتك، لكنها وللأسف ليست جدتي الحقيقية، تمسح على شعري وتحتضنني مثلما كنت تفعلين حتى أنها تنسى اسمي أحيانا لكنها في نفس الوقت تحبني، مثلك تماما.

أتمنى يا "ماني" أن تكوني الآن في جنات النعيم وقد اجتمعت هناك بجدي وخالتي بعد كل سنوات الفراق التي عشتها خلفهم، وأتمنى من قلبي ألا تلتحق بكم أمي رغم رغبتك الملحة بذلك فالوقت لا يزال مبكرا، مبكرا جدا.

حفيدتك التي تحبك.

إذا كان الموت خاتمة، لماذا نحمل عناء كل هذا الحب؟

عائشة بزيو

سمعت يوما وأنا أشاهد مسلسل الندم السوري مصطلح "عتبة الألم" والمأخوذ عن رواية تحمل نفس الاسم، لكنني لم أفهم معناه الحقيقي إلا عندما واجهت ألم أمي، ومرضها.

عتبة الألم مصطلح طبي، ويعني الحد الأدنى الذي يستطيع الإنسان تحمله من أي ألم جسدي كنقطة بداية لذلك الشعور، وعند تجاوز هذه العتبة، يبدأ الشعور الحقيقي بالألم.

دعكم من كل هذا، هل سمعتم يوما عن رفع عتبة الألم ؟

عُروة، بطل المسلسل، لم يرفع من عتبة ألمه إلا متأخرا، لكنه رفعها في النهاية كي يستطيع التجاوز والتقبل والأهم، كي يحصن روحه مما هو آت.

رفع عتبة الألم، يعني إعلاء سقف توقعات تحمل الإنسان لكل ما هو مُوجع أو مخيف من فواجع الحياة، بكل ما قد يحدث لنا وقد لا يحدث كنوع من الحماية الذاتية لأنفسنا، ولأرواحنا.

لقد سمعنا مرارا وتكرارا عن أناس أضاعوا عقولهم جراء فقدانهم لأحد قريب على قلوبهم، سوا كان الفراق حياتيا أو سببه الموت، عن أشخاص جُن جنونهم بعد أن خسروا أموالهم أو بعد فشلهم في تحقيق أهدافهم، لقد عانى هذا من الوليات، فقط لأنه لم يكسر عتبة ألمه الأولى.

الخيبات وانكسارات الروح تُقوي الإنسان على كل ما قد يُقدر عليه مواجهته مستقبلا، كنوع من التلقيحات النفسية، كأن تعتاد نفسك على نمط

عال من الألم فتتعايش معه وتجعله أمرا "عاديا"، دون أن تلجئ في كل مرة للمهدئات أو لمسكنات الوجع، أيا كان نوعها، مجرد تقبل وتناسي للآلام ومواضعها.

الخسارات أنوع، لكن أشدها وطئة على القلب، وجع الفقدان، لا لقاءات ولا أحاديث ولا حتى وداعا يليق بكل تلك الذكريات، إنه أشبه بأن تعيش غريبا في وطنك، في بيتك، وغريبا حتى على نفسك.

عُروة كاتب سوري، نجح في كسب جمهور عريض من القُراء لروايته "غُرباء في الليل"، تماما مثلما نجح في كسب قلب هناء.

" مَن أنتِ يا هناء..سألتُها يوماً..

قالت: أنا حمامةُ الأيك... .

أنتِ ذبحةُ القلبِ يا هناء وَ وجعُ الروحِ و غصَّةُ العُمر"

بحياة صوَرها لنا عُروة باللونين الأبيض والأسود هي حاضره، وأخرى مُلونة قبل الحرب السورية، قبل الغربة الوطنية، وقبل هناء.

تحت أصوات القصف، يكتب لنا عن كل ما آلت إليه حياته داخل بيته وبين أسوراه، بعد أن كان مُحاطا بكل ما يحب من أشياء، والدين رضو عنه حتى أرضاه الله بكرمه، شهرة واسعة وأضواء، وهناء. لكنه وبين ليلة وضحاها، أمسى مكتئبًا وحيدًا، بأحباب رحلت أصواتُهم، وبقيت صورهم معلقة على الجدران.

بداية من شقيقته التي رحلت عنها الحياة بعد أن سيق زوجها إلى المعتقل أمام ناظريها وسُجن دون محاكمة، وصولا إلى أمه التي تركت عالمنا بغصة على ابنتها، حتى والده عزيز القوم، بشموخه وكبريائه، انقسم ظهره

برحيل ابنه الأكبر عنه وموت شريكته، راح ينهار اليوم تلو الآخر حتى لحق بمن سبقوه تاركاً عُروة وحيدا يحارب لرفع عتبة الألم، مجددا.

وتحت أصوات البنادق والمسدسات، رحلت هناء هي الأخرى بعد إصابتها بمرض قلبي نادر أودى بحياتها، وحياة من تركت خلفها، لترتفع العتبة أكثر فأكثر.

"إلى أين وصلنا يا الله، ماذا زرعنا لنحصد هذا الخراب كله ؟

لن تحصد القمح إن كنت قد زرعت شعيراً و لن تحصد الشعير إن كنت قد زرعت شوكاً. مادام الجني هذه الكوارث كلها فما هي طبيعة الشرور التي زرعنا؟"

هكذا تساءل عُروة عن حال سوريا في إشفاق، عن حال نفسه وحال الجميع الذين تجلى على وجوههم رفع ما سميناه " عتبة الألم" ليتمكنوا من الاستمرار.

"خذها قاعدة مهمة في حياتك، من المهم جدا أن يرفع الإنسان من عتبة الألم، من المهم جدًا" هكذا ختم لنا عُروة كل ما رُوي من قبل، بنصيحة طبية تشمل كل الحياة، الأزمنة وكل شيء.

قصة الندم، تحمل معان فلسفية عميقة، حزينة هي بعض الشيء، لكنها تحمل أرواحنا إلى حيث الأمان والسكينة والتقبل، ورغم كل البؤس الذي تحمله، إلا أن أغنيتها رائعة في خضم كل الأسى والخراب.

"قلبي، قلبي علينا

اِفترقناَ حين اِلتقينَا

واِذ توقفنَا مشيناَ

كلٌ على درب، كلٌ بلا قلب

كأننَا ما تَعارفنَا وكأنَنا ما هوينَا"

وأظن أنني أخيرا، رفعت عتبة الألم، تأهبا لما هو قادم.

وتبقى أمك حين لا يبقى أحد، هي جيشك الوحيد والمتأهب لكل معاركك مهما كانت شدتها، هي ظهرك وسندك ومصباح حياتك، ما إن تغيب شمسها حتى تتأكد أنها لن تشرق مجددا، بنفس النور.

اليوم الثالث من الغيبوبة ولا أثر لأمي حتى الآن، لا تزال تغط في سبات عميق لا أحد يعلم نهايته، وأنا، أختي وأخي وأبي لا نزال تائهين في نفس الدوامة دون أن يجد أحد منا مخرجا يدل البقية عليه.

لا يزال أقاربنا يتوافدون من كل حدب وصوب، يجلسون في حديقة المستشفى بالساعات، البعض يثرثر تارة و يبكي تارة أخرى، والبعض الآخر يأتي محملا بالسندويشات كبيرة الحجم ليوزعها على الجميع وكأننا في مباراة، لم أكن أرى أي مبرر لقدومهم اليومي فالإنعاش ممنوع عليهم، لكنهم لم يفوتوا أية فرصة للدخول إليها محملين بالفيروسات، تصرُخ بهم الممرضة وتقوم بطردهم بعد أن يبدأ سيناريو البكاء الجماعي، الذي على حد ظنهم، سيوقظها.

نجلس أن وأختي في هدوء يشبه هدوء أمي في المصائب، يبدو أن لا أحد قد ورثه عنها غيرنا، تجدنا نقرأ القرآن، نحادث يمينة ونعتني بها أو نتجول بين الغرف ونفضفض عن مآسينا المتشابهة، بحيث لا يمكن لأحدنا أن يشفق على الأخر فهو مجرد سيناريو آخر لفيلم واحد جمعنا سويا.

أتذكر مشاهد مسلسل حلاوة الدنيا يوميا منذ دخولي إلى المستشفى وكأنني أعيشها، كل المشاعر التي اجتاحتني أثناء مشاهدته عادت من جديد، ولكنها كانت حقيقية هذه المرة.

في مشهد ما حملته الحلقة الأخيرة، عندما قررت أمينة عدم خوض معركة العلاج مرة أخرى وقضاء ما تبقى لها من أيامها في سلام، بعد أن عاد السرطان لينشط في جسدها مجددا، يأتي حادث سير مفاجئ ويغير مجرى القصة تماما. سليم في غيبوبة، وأمينة التي يجري مرض خبيث في دمائها نجت بجروح طفيفة، سخرية القدر أن تنجو هي التي تواجه موتا قادما، بينما هو الذي خرج منتصرا من معركته مع المرض طريح الفراش يصارع موتا وشيكا.

سخرية القدرهذه جعلت من أمينة تعيد حساباتها مع الحياة مجددا، المرض لا يعني حتما الموت، والصحة لا تعني دوما الحياة.

الموت واحد من الألغاز المحيرة، لا يختار من تتوفر فيهم الشروط للالتحاق به بل يختار منعدم الأسباب والقريبين جدا من الحياة، ليضرب في كل مرة نظرية المرض والسن عرض الحائط، وليثبت مجددا أن الموت والحياة نصيب وقرار، في آن واحد.

وقبل أن يستيقظ سليم، كانت أمينة قد حطت الرحال في غرفة العمليات لإجراء عملية زرع نخاع شوكي، بعد أن قطعت كل السبل على عائلتها الذين حاولوا إقناعها بذلك في السابق، وقد فهمت أخيرا أن الموت مجرد لعبة، وأن على هذه الأرض ما يستحق حتما الحياة.

بعد الظهيرة، كنت وأختي ويمينة نجلس في غرفتنا في هدوء حتى سمعنا دقا على الباب، لقد كانوا مجموعة من الشباب المتطوع، يوزع على كل المريضات والجليسات على حد سواء قوارير عطر وهم يرددون: عيد سعيد.

إنه عيد المرأة.

لطالما اشتريت لأمي الهدايا في هذا اليوم عدا السنة الماضية، لم أكن أملك من المال ما يكفي لاقتناء هدية، فقررت إعداد وجبة غداء لذيذة على شرفها، لم أكن أدري أنني وبعد سنة سأكون بانتظارها على عتبات غرفة الإنعاش.

أمسكت هاتفي وكتبت على صفحتي في الفايسبوك:

عيد سعيد لكل نساء الأرض، وإلى السيدة الأولى في حياتي، للمحاربة القوية التي تصارع من أجل الحياة، عيد سعيد لكي يا أمي وأتمنى أن تعودي إلينا قريبا، قريبا جدا.

يأتي الليل محملا بالخوف والقلق، بعد أن تخفت الأنوار ويعم الهدوء، لا جليس لنا سوى هواجسنا ومخاوفنا التي تتجسد على شكل أوهام مرئية و أحيانا على شكل كوابيس، وعدم البقاء وحيدا يعتبر من أفضل الحلول على الإطلاق لتفادي هذه الدوامة، وهذا بالضبط ما كنا ننتهجه أنا وأختي بعد أن يحل الظلام، الاجتماع بالآخرين.

أجلس أنا و يمينة و نتحادث، كأننا نسخر من الحياة وإلى ما أوصلتنا إليه من محطات، على طرف السرير تجلس عزيزة تقص علينا نكتا خفيفة مثلها تماما، نضحك وكأننا جئنا هنا لحضور حفلة عيد ميلاد وسنرحل بعد قليل كل إلى بيته.

تدخل أختي علينا ومعها فتاة ترتدي ملابس ممرضة وتقول أنها تعرفت عليها في العناية، طلبت منها مكانا لشحن هاتفها فالليل طويل ومناوبتها لن تنتهي إلا

بحلول الصباح، أهمس يمينة بأن دخول الأعداء إلى أوكارنا لا يعجبني، تهمس لي بدورها وتخبرني أن معرفتنا لنوايا الطرف الأخر قد يفتح علينا أبواب الانتصار، نضحك جميعا متخيلين ساحة حرب تجمع المرضى بأطبائهم، رغم أن عدوهم واحد في الحقيقة.

يحل الصباح مجددا بصعوبة، أستيقظ عند السادسة وأرسل أختي إلى ميدان الشرف كي تتقصى أخبار أمي علها تنال وسام زف الأخبار السعيدة، تعود المسكينة منكسرة وهي تقول:

-على حالها.

كانت الساعة تشر إلى الثامنة صباحا عندما اجتمعنا بغرفة الحاجة أم دليلة لنتمنى لها العودة بسلام وعافية. وبرأس حليق أشبه برأس أمي وجسم نحيل أبيض تعلوه ابتسامة رسمت على وجهها، غادرت الحاجة نحو قدرها المحتوم بينما بقيت الخالة دليلة تبكي في قلة حيلة، بعد أن سلمت والدتها بيديها إلى المجهول، ولا خيار لها غير ذلك من الأساس.

أضحى الرواق أشبه بالمهجور بعد ذلك، لا وجود للحاجة التي كانت تجلس أحيانا أمام النافذة الكبيرة علها تحظى بأشعة شمس خفيفة تدفئ عظامها، ولا لأمي التي كانت تمر بها تحييها وتطلب دعواتها وتغدق الجميع بدعوات أشبه بالتي طلبتها، حتى سعاد المجنونة التي تغني أحيانا وتبكي أحيانا أخرى لم تعد تقوى على النهوض، أطل عليها باستمرار فأجدها تأكل وتتحدث في آن واحد، بينما يضحك جميع من معها بهستيرية، يبدو أنها ورغم عجزها قررت عدم التوقف عن الأحلام، حتى لو أصبح نطاقها أضيق مما كان عليه في السابق، لكن لا بأس به في ظل كل ما يحدث، المهم أن لا تتوقف، عن الحياة.

وبينما كانت أمي لا تزال نائمة، كنت أنا في الخارج قد بدأت بالكتابة، المهم حسب ما تعلمته، أن لا نتوقف عن العيش، حتى لو كانت كل الظروف تجبرنا على عكس ذلك.

الحب هو ما يدفعنا لنعيش، يدفعنا لنسامح، لنكمل مسيرنا، وأحيانا لننسى ونحظى بفرصة للحياة مرة أخرى.

حبنا لأنفسنا وللحياة، حبنا الآخرين وحبهم لنا هو أيضا ما يجعلنا أقوياء، بحبهم وبشعورنا أنهم بانتظارنا دوما، متغاضين عن كل أخطائنا وهفواتنا، يحبوننا فقط لأنفسنا لا لشيء آخر.

لكن إذا كان الموت خاتمة، لماذا نحمل عناء كل هذا الحب؟ تجدني أتساءل في حيرة.

فإذا كان حقا الموت نهاية لكل شيء ولا مفر لأحدنا منه، فلماذا إذا نتكبد عناء كل هذا الحب الذي قد ينهينا بانتهاء من نحب؟

ولوهلة ظننت أننا أغبياء، لكنني وبعد أن نظرت حولي قليلا، فهمت المغزى من كل هذه الدوامة.

يبدو أننا نتكبد كل هذا لأننا جميعا ضيوف على هذه الأرض، وتعاملنا لمدة طويلة كأننا سكانها، وما الموت إلا فراق مؤقت، يوحي بلقاء آخر لنا مع أحبائنا في عالم أفضل، عالم جميل لا مرض فيه ولا شقاء، نحظى به بعد عبور اختبار الدنيا، وما الدنيا إلا اختبار عظيم، حله الأهم إن لم يكن الوحيد، الصبر.

مرت ساعات العملية عصيبة على الخالة دليلة، أمضتها المسكينة بين سجادتها وبين مُجمع العمليات، علها تحظى بأي أخبار تهدئ من روعها وتحسن من حالاتها المتعكرة منذ الصباح، كيف لا والجميع هنا منذعر بعد دخول أمي في

غيبوبة، أمي التي كانت في نظرهم تملك أعلى نسب النجاة بسبب صحتها البدنية السليمة وخلو جسمها من كل الأمراض المزمنة على غرار مرض السكري، القلب وارتفاع ضغط الدم، لكن على ما يبدو فقد فهم من هنا أن الخطر يحدق بالجميع بغض النظر عن ما إذا توفرت فيهم الشروط أو لا.

وعلى سرير بجانب أمي، استلقت الحاجة وقد تم توصيلها بأنابيب التنفس الاصطناعي بعد فشل الأطباء في محاولة إيقاظها فور انتهاء العملية لتدخل بذلك غيبوبة رسمية، عكس أمي التي لعبت معنا لعبة حتى الصباح الموالي لعمليتها.

ليلة أخرى من لياليا، قررنا قضائها في غرفة الحاجة الغائبة عنا لأول مرة، وكنت أنا وأختي، الخالة دليلة، عزيزة وسعاد التي بدأت تستعيد عافيتها شيئا فشيئا.

كانت الخالة دليلة في حالة يرثى لها أشبه بالتي كنا فيها أنا وأختي قبل أيام، رحنا نواسيها بصفتنا أصحاب تجربة فريدة من نوعها في مجابهة فكرة "من نحب في غيبوبة".

راحت الخالة ليندة تحكي لنا عن أيام ناريمان في غرفة الإنعاش وكيف استطاعت بعزيمة أم أن تتجاوز تلك المحنة العظيمة، وتخرج من هناك هي وابنتها يدا بيد.

-أنا الآن على أبواب المحنة مرة أخرى ولست بخائفة، إن كان لنا نصيب في العيش فسنعيش وإن لم يكن فصبر جميل والله مستعان.

وقد قالت جملتها تلك بصوت يرتجف حبا لناريمان، ناريمان التي ستدخل بعد أقل من 48 ساعة غرفة العمليات لتلتحق بذلك برفاق الكفاح الذين سبقوها

إلى هناك، كان عددهم على الجانب الآخر يزداد يوم بعد يوم، أما نحن فكان عددنا ينقص شيئا فشيئا، حتى صارت غرفة واحدة فقط تكفي للم شملنا الليلي.

العديد من المرضى الذين كنت أراهم يتجولون بيننا اختفوا فجأة، سألت عنهم لأجد بعضهم غادر المكان بسلام، والبعض الآخر يقبع في الغيبوبة، وواحد منهم قد مات.

أماكن كثيرة صارت خاوية ليحتلها مرضى آخرون أنا في غنى عن معرفتهم ومعرفة قصصهم، يكفيني ما سمعت ولا طاقة لي بالمزيد.

صباح آخر، وأمي على حالها وصوت عظيم في داخلي يخبرني أنها ستعود، لا بد أن يكون هناك تفسير للأمل الكبير الذي ينمو بداخلي بعد كل مرة تقول فيها أختي "على حالها"، لا بد أيضا أن يكون هناك سبب لإصرار أمي على العملية منذ البداية، وهل يصر الإنسان على رحيله؟

وبدل الغيبوبة صارت اثنتان، على اليسار تنام أمي وعلى يمينها تماما الحاجة التي تغط نوم عميق ونبضات قلبها توحي بعدم استقرار حالتها الصحية، على عكس أمي التي استقر كل شيء في جسدها ولكنها رغم ذلك لم تستيقظ.

نومة أمي والحاجة العميقة تلك، جعلتني أشعر بقيمة النفس البشرية الحقيقية، كم نحن ضعفاء أمام القدر، منحنين له في استسلام، لا سلطة لنا عليه سوى طاعته، ومصيرنا بين يديه وكيفما سطره الله سنسير عليه دون اعتراض.

كانت أمي تخطط ككل الأمهات لاستقبال رمضان قبل دخولها إلى المستشفى، بتوابل منعشة وأواني جديدة نستقبل بها الشهر الفضيل ككل سنة، يقينها بالعودة سالمة كان أكبر من كل شيء، لكن يبدو من الجلي أن تحدي القدر أمر مستعص علينا كبشر، كأن يحاول آدمي إيقاف عاصفة.

يومها، صار رواق العناية مزدحما إلى حد لا يطاق، بعد التحاق عائلة أحد المرضى الذي أصيب بارتجاج في الدماغ وبات يقف على أعتاب الحياة، وكأننا في ملعب، تدافع وصراخ بلا معنى مع عدم احترام لمسافة الأمان التي فرضتها علينا جائحة الكوفيد19، حتى الأقنعة الواقية ولم تجدي نفعا أمام أصواتهم العالية وتناثر لعابهم، لقد كانوا يتبادلون الجراثيم في طمأنينة.

أما رواقنا فصار هادئا فجأة، وكأن الجميع قد تعبوا وخارت قواهم بعد ما عشناه و ما نزال نعايشه بعد، لقد كان الأمر أشبه بالمغامرة التي شارفت على نهايتها.

الخامسة مساءا، بعد أن خرج آخر زائر من المستشفى، مخلفا وراءه أناسا يقبعون هناك لأسباب تخصهم ولا تخص غيرهم، نزلت السلالم بهدوء متجهة إلى الحديقة التي أطالعها من نافذتي منذ أيام، أليس لي الحق بمجالستها أنا الأخرى؟ أو أن الأمر مقتصر على متبادلي الجراثيم الذين يجلسون بها منذ الصباح؟.

بخطوات مثقلة، عيون شاردة ومعطف أحكمت إغلاقه، جلست على مقعد حديدي بارد بمفردي، وضعت كلتا يدي داخل جيبي بعد أن شعرت بأنهما يتجمدان خارجا ورحت أطالع غرفة الإنعاش التي تظهر من مكاني بوضوح، هناك تماما وعند الزاوية، تنام أمي.

في المشهد المقابل كنت أرى الأطباء يركضون ذهابا وإيابا، كانت مصلحة الكوفيد19 قد امتلأت عن آخرها و نحن الآن على أبواب موجة ثالثة من الوباء مثلما يتم تداوله عبر المواقع والقنوات، أنا هنا منذ أيام في بؤرة الأحداث ولم أصب بعد، يا ليتني فعلت، فمريض كورونا ينام لساعات طويلة من شدة الإعياء، ربما سأفعل وعندما أستيقظ تكون أمي هي الأخرى قد فعلت ذلك وينتهي الأمر.

لست أدري بالضبط كم طالت جلستي في الحديقة، ربما لساعة أو ساعتين، المهم أنني نزلت ونور الشمس لا يزال يملئ السماء وعدت إلى الرواق بعد أن حل الظلام.

وأنا على السلالم، سمعت أصوات عالية تأتي من الغرف، ظننت لوهلة أن أحد مرضانا قد تكرم واستيقظ أخيرا، وما إن وطأت قدمي الرواق حتى رأيت سعاد على كرسيها المتحرك وضمادة رأسها تضحك بشدة، بينما كانت أختي تجر عربتها ذهابا وإيابا وكأننا في الملاهي. كان الجميع يطل من على الأبواب على ما يجري من كوميديا بعد أن قررت سعاد أن تتحدى قدرها وتقف من جديد، كانت تشعر بالألم والدوار لكنها لم تأبه لذلك وظلت مبتسمة تلك الليلة عنادا في الحياة.

وفي آخر غرفة كانت الخالة ليندة تجلس في شرود على غير العادة، هي التي كانت تعطينا دروسا في الأمل، رأيت في عينيها ليلتها أنها تشحذه.

أم ناريمان القوية والشجاعة انكسرت فجأة وهي على أبواب الخطر، الخطر الذي يحدق بها منذ أكثر من عشرين سنة ولم تعرف للهروب منه سبيلا، غير مواجهته.

مرت الليلة بسلام وأمي على حالها، نائمة بعمق. حتى الحاجة المسكينة تأبى الاستيقاظ هي الأخرى، وكأن أشياء مبهرة قد شدتهم هناك حيث ينامون جعلتهم يترددون بين العودة أو الرحيل.

من جانبنا كان موعد ذهاب ناريمان إلى غرفة العمليات قد حان، دقائق مريرة عايشها كل من هنا وهو يرى الخالة ليندة تودع ابنتها والدموع تأبى مفارقة عينيها رغم مكابرتها على إظهارهم، آخذوا "نانو" مثلما يناديها الجميع وآخذوا معها روح والدتها فصارت كالشبح لا صوت لها ولا صدى، أمضت يومها كله جالسة على السرير تقرأ القرآن والأدعية وتنظر إلينا في شرود، و كانت تلك ساعات الجمر بالنسبة الخالة ليندة.

في غرفتنا، استلقيت على سرير والدتي وأنا أقلب هاتفي، رسائل واتصالات متراكمة لا أنوي الرد عليها إطلاقا، رسائل مواساة و بعض المكالمات الفائتة. لا طاقة لي بالتعامل مع أي منها على كل حال.

لست أدري في أي يوم نحن، أو في أي شهر، ربما في برد ديسمبر أو في حرارة جويلية، ومن المفترض حسب ما يُقال هنا أننا على أبواب الربيع. أي ربيع هذا الذي لا يستحي ويهل علينا في هكذا ظروف، كان الأجدر به أن ينتظر استيقاظ أمي من الغيبوبة.

كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساءا عندما استيقظت من قيلولة عميقة استرجعت بها شيئا من طاقتي، وجدت أختي تضع فتات الخبز للحمام من على النافذة، بينما جلست يمينة على كرسيها المعتاد وهي تحادثها بحنان، يمينة التي

أصبحت تشعر أننا أمانة كبيرة تركت لها ووجب عيها الاعتناء بها إلى حين عودة صاحبها، صاحبها النائم بعمق منذ أيام.

وإلى جانب والدتي والحاجة استلقت ناريمان على سرير و قد قررت يومها إحداث بعض التعديلات على قواعد اللعبة، كانت" نانو" مستيقظة بالكامل بعد نجاح عمليتها نجاحا مبهرا، أبهر الأطباء أنفسهم وخرجوا منها مرفوعي الأيدي.

ناريمان التي ظن الجميع أن هلاكها محتوم نجت بأعجوبة، يقين والدتها كان في محله ويبدو أن "نانو" ستعود إلى غرفتها العادية في صباح الغد بعيدا عن ضجيج أجهزة غرفة الإنعاش.

مساءا، كانت الأجواء سعيدة بنجاة "نانو" من محنتها، نجاتها التي أنستنا همومنا وما وصلنا إليه من سوء منذ أن جمعنا القدر في هذا المكان قبل أربعة عشر يوم من الآن، لربما كانوا سنوات وقد أخطأنا العد.

ولحظ ناريمان، تم توزيع عشاء فاخر في تلك الليلة، الصدقات هنا تعمل بدوام كامل، لا تدري من أي سيسقط عليك طبق شهي أو حلوى لذيذة، وكل ما عليك فعله هو تناولها والدعاء لصاحبها بكل ما يتمنى حدوثه.

أطباق من الكسكس والدجاج والمرق تغزو الرواق، كانت المأدبة مقامة على شرف رجل عاد سالما إلى أهله بعد حادث مرور أحدث ضررا على مستوى الرأس، استوجب خضوعه لعملية جراحية تكللت بالنجاح، لقد كان يوما سعيدا لكل الأطباء وعمال المصلحة بعد أن نجحوا في مهمتهم بعد كل عثرات الأسبوع.

التقيت بعبد الله الصغير وأنا أقف بعيدا عن غرفة الإنعاش، تناقشنا حول أسباب امتناعي عن زيارته، وبخني ثم عانقني بشدة، أخبرني أنه يعلم عن نوم أمي الطويل وأنه أيضا يدعو لها من قلبه.

العاشرة مساءا، اجتمعنا في غرفة الحاجة حيث تقبع هناك كل من عزيزة وسعاد، سعاد التي تورمت عيناها حتى كادت لا ترانا، لكنها وعلى الجانب الأخر لم تتوقف عن الكلام أو حتى عن الأكل، وعزيزة التي توبخها على شراهتها و الخالة دليلة التي تطالبهم بالهدوء، كانت مناوشات روتينية لا مفر منها في كل ليلة.

التحقت الخالة ليندة بنا بعد لحظات لتتبعها أختي التي كانت تساعدها في تحضير الغرفة استعدادا لاستقبال ناريمان في الغد، كانت فرحتها غامرة شعرنا بها جميعا وأعادت لنا الأمل بأن الحياة مليئة بالمفاجآت.

-هل تدرون أن الليلة هي ليلة الإسراء والمعراج؟

قالتها الخالة ليندة متسائلة.

إنها الليلة التي أسرى بالنبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى مع جبريل عليه السلام على دابة تدعى البراق، حتى وصلا الأقصى فصلا رسولنا بالأنبياء سيدنا إبراهيم وموسى وعيسى إماما لهم، فلما فرغ عليه السلام مما في بيت المقدس أصعده جبريل عليه السلام حتى وصل إلى باب من أبواب السماء، يسمى الحفظة عليه ملك من الملائكة اسمه إسماعيل فأدخله إلى هناك ورأى سيدنا آدم أبو البشر، ثم باقي الأنبياء في السموات السبع المتبقية وانتهت رحلته عندما وصل سدرة المنتهى، والتي تعتبر واحد من معجزات محمد صلى الله عليه وسلم التي من الله بها عليه.

إنها ليلة المعجزات.

-سأحاول إيقاظ الجميع لصلاة قيام الليل، سنصلي جميعا وسندعو الله ألا يحملنا ما لا طاقة لنا به، ويخير لنا لا يخيرنا لأنه أعلى وأعلم بأحوالنا.

قالت الخالة ليندة جملتها تلك بطمأنينة، ثم استأذنت بالرحيل وضربت لنا موعدا عند الساعة الثالثة صباحا من ليلة المعجزات، أما نحن فبقينا نتحادث حتى دخل علينا ابن الخالة دليلة الذي يقضي تربصه بالمستشفى، مطمئنا بأن جميع من بنام في الإنعاش بخير، ولا جديد يذكر عن حالتهم.

قالت عزيزة:

-أخبرني طبيبي اليوم أن عمليتي قد تأجلت بسبب اكتظاظ غرفة العناية المركزة، ونتيجة لقلة آلات التنفس الاصطناعي التي استحوذت عليها أمهاتكم (كانت تقصدنا والخالة دليلة) يجب أن يستيقظوا في أقرب وقت كي نتخلص جميعا من هذا المكان.

أكملت جملتها ودخلت في نوبة ضحك أضحكتنا جميعا وقد جعلت كل واحد منا يتكأ على الآخر، كانت الخالة دليلة تشير بيدها نحوي أنا وأختي ثم قالت وعيناها تدمع من الضحك والألم في آن:

-أقسم بالله أننا لا نخجل على أنفسنا، أمهاتنا هناك في غيبوبة ونحن هنا نضحك بالدموع.

أكملت جملتها وراحت تضحك مرة أخرى، وقد كنا جميعا نضحك أوجاعنا من جديد.

استمرت سهرتنا ليلتها حتى منتصف الليل، ذهب بعدها كل منا إلى سريره محملا بالآمال والهموم وكل ما قد يحمله بشري يمر بأيام عصيبة استنزفت طاقته وحيويته حتى صار أشبه بالمومياء المتحركة.

وضع كل واحد منا رأسه على وسادته ودخل في دوامة التفكير اللامتناهية، ترى متى سينتهي هذا الكابوس؟ وحتى لو انتهى، هل حق سنخرج منه بنفس

الشخص الذي دخله؟ هل حقا هناك نهاية لكل هذا؟ ربما فعلا هنالك مخرج من هذه المتاهة، لكن الباب من المحتمل أن يكون ضيقا ولا يتسع الجميع.

الثالثة صباحا، الخالة ليندة تدق أبواب الغرف بالتسلسل وتدعونا للتوضؤ ثم الصلاة بنية التيسير والفرج.

كانت المياه باردة جدا، نتيجة برودة الطقس في ذلك الأسبوع، لكن طمأنينة ليلة المعجزات أنستنا كل هذا وكأن روحا قد بعثت في رواقنا من جديد، حالة من الهدوء والسكينة غزت المكان، واتجه بعد الوضوء كل واحد منا إلى سجادته طلبا للنجاة.

فرشت سجادتي بين سرير أمي و يمينة وصليت كثيرا حتى شعرت بالتعب، وفي كل ركعة كنت أقول: "اللهم خير لنا ولا تخيرنا وأنت خير المدبرين، اللهم يا مسهل الشديد ويا ملين الحديد أخرج أمي من الضيق إلى أوسع الطريق بك تدفع مالا تطيق يا أرحم الراحمين، اللهم شعورا بالرضى عن قضائك وقدرك، اللهم لا اعتراض" كان دعاء من القلب كنت أعني كل كلماته وبجدية.

السابعة صباحا، استيقظت براحة مريبة بعد الليلة الروحانية الغريبة التي أمضيناها، لم أنم بعمق كهذا منذ شهر ونصف وقد كنت بحاجة جدا لذلك.

أرسلت أختي للاطمئنان على أمي كالعادة بينما رحت أرتب أغراضنا قبل موعد مرور الأطباء، شعرت أنها تأخرت لكنني حاولت تشتيت عقلي عن التفكير بالأمر، ربما التقت بصديقتها الممرضة وهما يثرثران الآن في الحديقة، ربما استيقظت أمي وهما الآن تتعانقان بشدة في انتظار التحاقي بهما، كنا أرمي بالأفكار الجميلة في رأسي حتى لا تأتي أخرى بشعة وتجعل قلبي يخفق بشدة أكبر من الشدة التي يخفق بها الأن.

وبهدوء يشبه هدوء أمي، دخلت أختي الغرفة بخطوات مهذبة ووقفت بجانبي وقالت:

-ماما ماتت، إن لله وإن إليه راجعون.

دموعها كانت مختفية حتى رحت أردد خلفها في رضا عجيب لم أتوقعه مني:

-إن لله وإن إليه راجعون.

لم أعانق أختي بشدة مثل ما عانقتها يومها، شعرت أنها ما تبقى لي من أمي، أمي التي رحلت مبكرا، مبكرا جدا.

ستة أيام من الغيبوبة يا أمي كبرت فيها ستين عاما، ما أقساه من فجر غادرتي في الحياة. رحمك الله يا ماما.

جلست على طرف سريرها الفارغ وأنا أشم رائحتها لأخر مرة، كيف لها أن تغادرنا دون وداع رسمي أو حتى حضن أخير، و ليت الأمر كان بأيدينا.

هكذا رحلت أمي من هذه الدنيا، وكأن الكوكب قد توقف عن الدوران، لا دموع سقطت ولا مشاعر تحركت، شعور مهيب ويقين بأنها رحلت لمكان أفضل، لا جوع فيه ولا فقر، لا أمرض ولا تعب، لا مزيد من مشقات الحياة، راحة أبدية للطيبة قلوبهم.

بقيت أطالع النافذة في انتظار ما سيحدث، و ما الذي سيحدث بعد الذي حدث؟ رحلت من جئت معها إلى هنا يدا بيد ولن ألقاها مجددا.

مهلا، لطالما كانت أمي تردد جملة في كل مرة تعزي فيها أحدا، كانت تقول: "ملاقاة الجنة".

لقاء الجنة إذا، وهل سيكون لنا لقاء في النعيم حقا؟ بقيت أردد وقد فاضت عيناي أخيرا وأنا أردد: ملاقاة الجنة، ملاقاة الجنة.

وبخطى ثابتة لجئت إلى الخالة دليلة النائمة على سرير والدتها، قلت بهدوء:

-خالتي دليلة استيقظي، لقد رحلت أمي.

انتفضت من مكانها وعانقتني بشدة، كان حضنها أشبه بحضن الأمهات.

وتعويضا عن كل البكاء الذي لم أبكه من قبل، بكيت يومها بكاء الرحمة على فقيدتي التي جئت بها إلى هنا وها أنا أغادر من دونها.

أبكي قليلا ثم أطالع أختي، صارت تشبه أمي بشكل كبير فجأة، أحتضنها ونبكي سويا.

كل من في الرواق كان يبكي بشهقة، سعاد، عزيزة، يمينة التي تبكي وتحتضننا وهي تقول:

-أنتم أمانة عندي من اليوم وحتى ألقى الله، أنتم أمانتي.

وبينما كانت أختي تقبل جبين أمي البارد لآخر مرة، كانت ناريمان تعود إلى غرفتها بعد استيقظت بالكامل وقد أعلن الأطباء نجاح عمليتها بشكل رسمي، وهكذا هي الحياة، لعبة على الأطراف لا قواعد تحكمها ولا سلطان عليها، و الحياة، سيدة نفسها.

جمعت أختي أغراض أمي في حقيبتها، و ظل والدي يقف عند مدخل الرواق وعينيه يحدقان في الأرض، انكسار وضيق خاطر عظيم كان مرسوما على محياه وكأنه كبُر تسعين عاما بينما اختفى أخي عن الأنظار.

أحضان الخالة ليندة وابنة الحاجة وحتى تلك الطبيبة النفسية التي زارتنا ذات صباح، كانت كفيلة بإقناعي أكثر أن أمي امرأة صالحة بما يكفي ليحبها من عرفوها منذ أيام ويرثوها بدموع ومشاعر حقيقية تستحقها فعلا، أين أنت يا بن قيطون كي ترثيني في أمي؟ أين أنت كي تكتب قصيدة تليق بفاجعة رحيل سيدة قلبي الأولى؟ أين أنت كي تقول عنها شعرا أخيرا يدعي لها كل من يقرأه؟

أنا من سأرثي أمي بكلمات تليق بمقامها، قلت في قرارة نفسي يومها، لم أكن أدري أن تلك الكلمات ستشكل يوما كتابا، كتابا يحكي عنها وإليها كُتب.

لم أقوى على مواجهة ختامية مع أمي وسمحت لهم أن يغسلوها دون أراها للمرة الأخيرة، قررت أن أحتفظ بصورتها الحية في عقلي، وقلبي.

أغلقت أختي الحقائب بإحكام وبخطوات ثابتة خرجنا من الغرفة، الغرفة التي جمعتنا بأمي لآخر مرة، هنا اجتمعنا يوما وتبادلنا قصصا من القلب، هنا منذ أيام وبين هذه الجدران تعلمنا ما لا يمكن للسنوات أن تعلمنا إياه، هنا فهمنا قيمة النفس الحقيقية، ضعفاء نحن أمام قدرتك يا الله، اللهم جبر اللهم قوة.

خرجنا من هناك أنا وأختي ممسكين لأيادي بعضنا مثلما كانت توصينا أمي دوما، شكرا على كل تلك الدروس، على تلك الليالي الطويل المليئة بالقصص، شكرا على أيام التعب والشقاء التي لم نستطع أن نوفيك حقها، شكرا على كل ذلك الحب، شكرا يا أمي.

في الأسفل، وعند الحديقة التي تبادلت معها الهموم يوما، وقفنا أنا وأختي وحقائبنا على الأرض في انتظار أن يقلنا أحدهم إلى المنزل الذي ما عادت أمي جزءا منه بعد الآن، فجأة ظهر أخي وهو يخرج من الباب الرئيسي، ودع أمي وجاء ليستلم هو الأخر الأمانة على حد قوله.

وفي مشهد لن يغيب عن عقلي ما حييت، وقفنا ثلاثتنا ونحن نمسك بأيادي بعضنا ونبكي بشدة، رفعت رأسي لأرى كل من الخالة ليندة، دليلة ويمينة، يقفون عند النافذة ملوحين بأيديهم لنا، وكأنهم يقولون لنا أن للدنيا طبيعة لا يمكن الخروج عنها، إنها سنة الله في أرضه.

عشت أطول طريق في حياتي أثناء عودتنا إلى المنزل، زحمة سير قاتلة أوقفت سيارة بجانبنا صدحت منها أغنية" ما بلاش" وكأن العالم كله اتحد يومها كي يضيف ملحا على جروحنا.

"الحقيقة إن الحياة ضحكت علينا

لا الفراق ولا اللُقى كانوا بإدينا

لما يومها حضنتني وبعدين مشينا

ليه مقلتش عن ده الحضن الأخير"

هكذا هي الحياة، لا مواعيد معها ولا ترتيبات، هي مجرد مفاجآت وتغييرات دائمة في الخطة، وفقط.

دُفنت أمي عصر ذلك اليوم وشعرت يومها أن منزلنا قد دُفن معها بالكامل.

أقف على قبر أمي بعد خمسة أشهر من رحيلها وأنا شخص آخر تماما، أي قوة هذه التي منحني إياها موتها؟ أي جبر إلهي هذا الذي جعلني أكتب عنها وأنا التي كنت أخشى أن تجرحها شوكة ؟ هل حقا رحيل الأحبة يمنحنا مناعة من الصدمات المقبلة ويجعلنا أصلب في مواجهة الحياة، كيف لا ونحن الذين خضنا أصعب معاركها وخرجنا منها منتصرين، وقد قدمنا على أرض المعركة أعز ما على قلوبنا، فداء لقوتنا المستقبلية، نتطلع خلفنا قليلا، فنتأكد أننا قد خرجنا أحياء، من مذبحة.

هنا إذن تنام من زرعت فينا شغف الحياة، لم أعد أتساءل عن مكانها منذ أن رأيتها في منامي وقد طمأنتني أنها بخير، وربما هي في حال أفضل بكثير مما كانت عليه هنا، لكن ما كان يشغل بالي حقا، أين اختفت كل تلك الضحكات والأصوات، أين تلك الروح اللطيفة التي كانت تحملها وهل برحيلها اختفى كل شيء حقا ؟ رحت أتساءل مجددا وأنا أنظر إلى قبرها، من الذي أعطى للتراب سلطة دفن الابتسامات والأحاديث؟ من سلمها حق طمس ملامح من نحب في أعماقها ؟ أمي الدافئة الآن تحت هذه الأرض الباردة.

جلست عند شاهد قبرها ورحت أمسح حيث كتب اسمها، جباري حورية، حورية قلبي.

قررت في تلك الليلة أن أكتب آخر رسالة أختم بها هذه الرحلة، رحلة الجبر والقوة، ورغم كل الفوضى التي تسود العالم، لن أتوقف يوما عن الحديث عن أمي.

"مرت خمس أشهر منذ رحيلك وقد شعرت أنها خمسون عاما من الفراغ الرهيب، خمسون عاما بدون صوتك وملامحك، خمسون عاما دون أن أسمع توبيخا واحدا من تلك التي أحلم اليوم بسماع ربعها بصوتك، "لا تنسي غلق الغاز"،

" لا ترتدي السماعات عندما تكونين بالخارج، قد يناديك أحد ولن تستطيعي سماعه"، "بلاكي على روحك"، لم يتبقى أي من هذا بعد اليوم.

لكن الآن وبعد خمسين سنة من رحيلك، أود أن أخبرك أنني تعلمت أن أتفقد الكهرباء والغاز بمفردي دون أية أوامر قبل أن أخلد إلى النوم، تعلمت أن أطبخ دون أن أعود إليك لتصحح لي أخطائي في الوصفات، وصفاتك التي تركتها لي ككنز عظيم أتذوق طعمها وأنا أشعر بأن طيفك يرافقني وأعدك أن أطبخها لأطفالي وأخبرهم أنها إرثي الغالي من أمي.

تعلمت أن أمرض وأشرب دوائي بمفردي دون أن تذكريني بفعل ذلك، تعلمت كيف أواجه مشاكلي بدل الهروب منها إليك لتساعديني في حلها، تعلمت أخيرا كيف أكون امرأة بعد أن كنت طفلة، يقولون أيضا بأنني صرت أشبهك في طريقة كلامك، يبدو أنني تعلمت أن أكون قوية، مثلك تماما.

أتمنى من قلبي أن تكوني في مكان أفضل. نحبك قد الدنيا."

لعلكم تتساءلون الآن عن مصير البقية، أليس كذلك ؟

دعوني أخبركم...

ناريمان البطلة غادرت المستشفى بعد أيام إلى منزلها لتبدأ حياة جديدة حاربت طويلا لتحظى بها، وأتمنى من قلبي أن يكتب الله لها أياما سعيدة تعوضها عن كل الأسى الذي مرت به.

سعاد هي الأخرى تعافت ورحلت إلى مدينتها، لتلحق بها عزيزة بعد أن أجرت عمليتها وعادت لأحضان عائلتها وزوجها الذين طال انتظارهم، وتحقق لهم ما كان بالأمس مستحيلا.

يمينة، أجرت عمليتها أخيرا بنجاح، لتنضم بعدها إلى عائلتها مشاركة إياهم مائدة رمضان ، مثلما حلمت لليال طويلة.

عبد الله الصغير، أجرى عمليته الثانية بعد أسبوعين من رحيلنا، وقد بدأ في التعافي تدريجيا بعد أن خرج منها سالما، كالأبطال.

أما الحاجة، فقد رحلت إلى جانب أمي بعد ثلاثة أيام من الغيبوبة، تاركة خلفها الخالة دليلة، وقد رفعت من عتبة الألم أخيرا، مثلما فعل الجميع.

تمت بحمد الله.